الندوة العلمية الموسومة

نهاية الحكم العثماني في إيالة الجزائر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كلية الآداب والحضارة الإسلامية

يوم: الأربعاء 11 جمادى الأولى 1446هـ الموافق :13 نوفمبر 2024 م

عنوان المداخلة : نهاية النظام العثماني

من هزيمة "فيينا" (في النمسا) إلى هزيمة "أوسطه والي" (في الجزائر)

1094 هـ - 1245 هـ / 1683 -1830 م

the End of the Ottoman Regime

From the Defeat of "Vienna" (in Austria) to the Defeat of "Osta Wali" (in Algeria)

AH - 1245 AH / 1683 - 1830 AD 1094

خليفة حماش

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قسنطينة - الجزائر

ملخص :

تعد معركة فيينا (النمسا) التي خاضها الجيش العثماني بقيادة قره مصطفى باشا ضد الجيش النمساوي وحلفائه الأوروبيين عقب حصار العاصمة النمساوية (فيينا) في يوم 20 رمضان 1094 هـ / 12 سبتمبر 1683 م، وبعدها معركة "أوسطه والي" (الجزائر) التي خاضها الجيش الجزائري العثماني يوم 27 ذي الحجة 1245 هـ / 19 جوان 1830 م،ضد الفرنسيين الذين قدموا لاحتلال الجزائر، أخطر معركتين خاضتهما الدولة العثمانية في تاريخها الذي امتد على طول ستة قرون من الزمن. ذلك أن العثمانيين قد انهزموا في كلتا المعركتين هزيمتين مروعتين، أقول إذا كان انهزامهم في فيينا قد أوصل حدود دولتهم إلى تلك الصورة، فإن انهزامهم في المعركة الثانية (أوسطه والي) قد أجبرهم على الخروج من الجزائر، وبعدها من تونس ومصر والسودان، وطرابلس الغرب (ليبيا).،

الكلمات المفتاحية: هزيمة النمسا –،هزيمة "أوسطه والي- الدولة العثمانية –ايالة الجزائر

Summary

he Battle of Vienna (Austria) fought by the Ottoman army led by Kara Mustafa Pasha against the Austrian army and its European allies after the siege of the Austrian capital (Vienna) on 20 Ramadan 1094 AH / 12 September 1683 AD, and then the Battle of "Osta Wali" (Algiers) fought by the Ottoman Algerian army on 27 Dhu al-Hijjah 1245 AH / 19 June 1830 AD, against the French who came to occupy Algeria, are the two most dangerous battles fought by the Ottoman Empire in its history that spanned six centuries. This is because the Ottomans were defeated in both battles with horrific defeats. I say that if their defeat in Vienna brought the borders of their state to that picture, then their defeat in the second battle (Osta Wali) forced them to leave (Algeria, and after that from Tunisia, Egypt, Sudan, and Tripoli (Libya.

Keywords: Defeat of Austria - Defeat of "Osta Wali" - Ottoman Empire - Eyalet of Algeria

مقدمة:

تعد معركة فيينا (النمسا) التي خاضها الجيش العثماني بقيادة قره مصطفى باشا ضد الجيش النمساوي وحلفائه الأوروبيين عقب حصار العاصمة النمساوية (فيينا) في يوم 20 رمضان 1094 هـ / 12 سبتمبر 1683 م، وبعدها معركة "أوسطه والي" (الجزائر) التي خاضها الجيش الجزائري العثماني يوم 27 ذي الحجة 1245 هـ / 19 جوان 1830 م،ضد الفرنسيين الذين قدموا لاحتلال الجزائر، أخطر معركتين خاضتهما الدولة العثمانية في تاريخها الذي امتد على طول ستة قرون من الزمن. ذلك أن العثمانيين قد انهزموا في كلتا المعركتين هزيمتين مروعتين، وإذا كانت هزيمتهم في المعركة الأولى قد أجبرتهم على الانسحاب من المجر التي فتحت في عهد السلطان سليمان القانوني عام 1529 م، وبعدها على البلقان والأراضي الأوروبية بوجه عام، إلى أن انحصرت حدودهم بعد ذلك بنحو ثلاثة قرون، في بقعة ضيقة من أوروبا لا تتجاوز مدينة أدرنة وضواحيها، والتي تبعد عن إستانبول بنحو مائتي كيلومتر، أقول إذا كان انهزامهم في فيينا قد أوصل حدود دولتهم إلى تلك الصورة، فإن انهزامهم في المعركة الثانية (أوسطه والي) قد أجبرهم على الخروج من الجزائر، وبعدها من تونس ومصر والسودان، وطرابلس الغرب (ليبيا)، وبعدها وكانت المحصلة العامة التي ترتبت في عام 1922 م عن الانهزام في المعركتين المذكورتين هو نهاية النظام العثماني برمته وسقوط الدولة العثمانية الكبرى (أو العالمية) التي كان جناحاها يغطيان أراض واسعة في القارات الثلاث (آسيا وأروبا وأفريقيا)، ومعها البحار الكبرى الثلاثة: المتوسط والأسود والأحمر، وحلول دولة قطرية محلها هي الجمهورية التركية. وبناء على تلك النتائج الخطيرة التي ترتبت عن المعركتين المذكورتين فإن كل مؤرخ مختص في التاريخ العثماني بوجه خاص، والتاريخ الحديث بوجه عام، بات عليه أن يطرح السؤال الذي يبحث في أسبات الهزيمة التي لحقت العثمانيين في المعركتين المذكورتين.

وفي ظل الوقائع التاريخية الكثيرة التي صارت شاخصة أمام أعيننا اليوم والإشكالات المتعددة التي أصبحت تطرحها علينا تلك الوقائع لمعرفة أسباب حدوثها، فهل يمكن لنا بخصوص المعركتين المذكورتين، أن نكتفي بالأسباب التقليدية

التي أوردها المؤرخون حولهما ونقتنع بها كما هي، أم علينا أن نبحث عن أسباب أخرى غيرها أكثر إقناعا. وإذا أخذنا بالاحتمال الثاني فأين يكون البحث عن تلك الأسباب، فهل هو في المجال الذي تمثله المؤسسة العسكرية العثمانية والظروف الميدانية التي أحاطت بوقوع المعركتين كما فعل المؤرخون، أم يكون ذلك في مجال آخر، وبالتحديد في الواقع التاريخي والحضاري العام للطرفين اللذين جمعتهما المعركتان. وبأسلوب آخر أكثر وضوحا: كيف فَسرّت الكتابات التاريخية في القرن الماضي وقبله، انهزام العثمانيين في المعركتين المذكورتين، وهل تلك التفسيرات هي اليوم مقنعة لنا ولطلبتنا في المدارس والجامعات، أم غير مقنعة، وإذا كانت غير مقنعة فما هو التفسير البديل الذي علينا تقديمه؟ وتلك الأسئلة هي التي تشكل موضوع عملنا هنا، وتكون الإجابة عنها من خلال ثلاثة عناصر أساسية: أولها التعريف بالمعركتين، والثاني أسباب هزيمة العثمانيين فيهما كما تقرأ في الكتابات التاريخية، والثالث أسباب الهزيمة كما تُرى في الواقع العام والسائد آنذاك، وأنهينا العمل بخاتمة تضمنت ملخصا ونتيجة عامة للموضوع.

أولا: التعريف بالمعركتين:

أ . معركة فيينا:

تنسب هذه المعركة إلى مدينة "فيينا" عاصمة النمسا في العصر الحديث. وكانت منذ القرن العاشر حتى سنة 1806 م عاصمة للأمبراطورية الرومانية المقدسة. وصارت بعد ذلك إلى سنة 1866 عاصمة لأمبراطورية النمسا، ومنها إلى سنة 1918 عاصمة لدولة النّمسا الموحدة، وبعد ذلك عاصمة لدولة النمسا الحالية. وتستمد اسمها من اسم نهر صغير بطول 34 كلم، يقطعها من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، ويصبُّ في نهر الدانوب الذي يقطع مدينة فيينا هو الآخر بالاتجاه نفسه. وهي تحتل موقعا استراتيجيا في قارة أوروبا، استمدته من اعتبارات جغرافية وتاريخية وسياسية. فالاعتبار الجغرافي يمثّله من جهة موقعها على نهر الدانوب العظيم الذي يقطع قارة أوروبا من الغرب إلى الشرق ويصب في البحر الأسود، مما وفّر لها وسيلة اتصال بحرية مهمة بينها وبين مدن أوروبية كبرى أخرى تقع على النهر نفسه، وهي بلغراد وبودابست في الشرق، وميونيخ في الغرب. ومن جهة أخرى كونها تتوسط قارة أوروبا، بل هي قلبها، مما جعلها حلقة ربط بين أقسامها الأربعة: الشمال حيث تقع بولندا وألمانيا، والجنوب حيث تقع إيطاليا، والغرب حيث تقع فرنسا وإسبانيا، والشرق حيث تقع دول البلقان. وهي كلها دول ذات أهمية إستراتيجية معتبرة، وذات وزن تاريخي وسياسي وعسكري كبير في القارة. أما الاعتبار التاريخي والسياسي فتستمدُّهما مدينة فيينا من كوْنها ظلّت منذ القرن العاشر الميلادي إلى عام 1806 عاصمة للإمبراطورية الرومانية المقدسة وريثة الإمبراطورية الكارولنجية التي كان الإمبراطور شارلمان (768 . 814 م) أعظم أباطرتها. وعلاوة على ذلك فإن الإمبراطورية الرومانية المقدسة كانت تُعتبر الوريث التاريخي للإمبراطورية الرومانية، وكانت أراضيها تشمل أوروبا الغربية والوسطى. وكانت تحكمها أسرة آل هابسبورغ النمساوية من 1452 إلى 1740 م.

وبالنظر إلى تلك الأهمية المتعدِّدة الجوانب التي نالتها مدينة فيينا فإنه من الطبيعي أن تكون هدفًا عسكريا لكل دولة عُظمى تسْعى ليكون لها وجود معتبر في قارة أوروبا، وبشكل خاص إذا كانت تلك القوة تتمركز في مدينة إستراتيجية أخرى مثل إستانبول المقابلة لها في الشرق، والمهيأة جغرافيا لتكون عاصمة لكل دولة عظمى تسعى لتمد جناحيها على أوسع بقاع الأرض البرية والبحرية، وهي آسيا في الشرق، وأوروبا في الغرب، والبحر الأسود في الشمال، والبحر المتوسط في الجنوب. وهذه العلاقة الإستراتيجية الحتمية بين إستانبول وفيينا هي التي عبّر عنها أحد رجال السياسة والقانون الأوروبيين المشهورين في القرن التاسع عشر الميلادي وهو الإسباني خوان دونوصو كورتس Juan Donoso Cortes (1809 .

1853 م) عندما تحدّث عن أهمية إستانبول بالنسبة إلى النمسا، وبيّن الخطر الذي ستشكّله روسيا على وجودها السياسي (أي وجود النمسا) في حالة نجاحها في انتزاع تلك المدينة من أيدي العثمانيين، فقال: "إن اليوم الذي سيستولي فيه الروس على القسطنطينية سيكون هو اليوم ذاته الذي ستُمحى فيه النمسا من قائمة الدول العظمى، وليس ذلك فحسب، بل إن ذلك اليوم سيكون هو اليوم الذي سيبدأ فيه محو اسمها من قائمة الدول في العالم أيضا"[1]. ويقصد بذلك أن روسيا إذا ما أفلحت في الاستيلاء على القسطنطينية، فإن ذلك الاستيلاء سيدفعها حتما إلى الاستيلاء على النمسا. ولعل هذا المبدأ العسكري والسياسي الذي تتحكم فيه الجغرافيا، هو الذي رسم نظرة العثمانيين تجاه فيينا وحدد موقعها في مخطط إستراتيجيتهم العسكرية وسياستهم الأوروبية منذ فتحهم للقسطنطينية عام 758 هـ / 1453 م. وترجمت تلك النظرة في الواقع العسكري من خلال وقوف جيوشهم على أبوابها مرتين بهدف فتحها، الأولى منهما عام 935 هـ / 1529 م بقيادة السلطان سليمان القانوني، والثانية في عام 1094 هـ/ 1683 م بقيادة الصدر الأعظم مرزيفونلي قره مصطفى باشا، في عهد السلطان محمد الرابع (1647 . 1687 م).[2] ولم يحقق كلا الحصارين هدف العثمانيين في الاستيلاء على المدينة. وإذا أمْكن لنا أن نَعُدّ الحِصار الأول بمثابة اكتشاف جغرافي وطوبوغرافي وعسكري للمدينة، بحكم أن العثمانيين لم تكن لهم معرفة من قبل بالمنطقة التي تقع فيها فيينا، فإن الحصار الثاني لم يكن كذلك، وإنما كان عملا عسكريا حقيقيا هدفُه الاستيلاء على المدينة، ولذلك استخدم فيه العثمانيون جميع إمكاناتهم العسكرية، من جيش[3] وسلاح[4]، ومعرفة بالمنطقة[5]، وخبرة قتالية[6]. وبدأ حصار المدينة يوم 19 رجب 1094 هـ / 14 جويلية 1683 م، واستمر إلى يوم 20 رمضان / 12 سبتمبر من السنة نفسها، وبلغت مدته تسعة وخمسين (59) يوما. وقام العثمانيون أثناء تلك المدة بثمانية عشر (18) هجوما على المدينة لاقتحامها، كان أولها يوم 25 جويلية، وآخرها يوم 8 سبتمبر[7]. وحتى اليوم الأربعين من الحصار كان العثمانيون قد حققوا تقدُّما ملموسا في عملياتهم العسكرية، ولكنهم خسروا عددا كبيرا

---

[1] Gérardin (Emile de), Solution de la Question d'Orient, Paris, 2e éd. ,Paris, Librairie Nouvelle, 1853,p 19

[2] هناك حصار عثماني آخر للمدينة حدث في عام 1633 م، ولكنه غير مؤكد، وإن حدث ذلك الحصار فهو ليس شهيرا مثل الحصارين الآخرين.

[3] يقدر المؤرخون الأتراك الجيش الذي شكل حملة فيينا بأكثر من خمسمائة ألف (500000) رجل. وهو يتشكل من قسمين: قسم المقاتلين وعددهم 350 ألف رجل، وهم 60 ألف من المشاة (انكشارية وجبجية ومدفعية)، و15000 من الفرسان، و50 ألف من جنود إمارة القِرم (التاتار)، و40 ألف من جنود التيمار والزعامت (الإقطاع)، و3000 من المصريين، و5000 من الشاميين، و30 ألف من جنود إمارات اردل (ترانسيلفانيا) وبوغدان وأفلاق (لكل منهم 10 آلاف رجل)، و20 ألف من المجريين. والباقي من قوات الإيالات والسناجق. أما القسم الثاني فيمثل رجال الدعم، وعددهم 150 ألف رجل. راجع:

Uzunçarşılı (Ismail Hakkı), Osmanlı Tarihi, 3. Cılt, 1 kısım, 3. baskı, Ankara, TTK Basımevi, 1983, s 440.

أما جوزيف دو هامر فيقدر الجيش العثماني الذي شارك في الحصار بمائتي ألف فقط راجع:

Hammer (Joseph de), Histoire de l'Empire Ottoman, T. 12, Paris, Bellizard, p 193.

[4] أهمها المدافع، ولكن ليس لدينا معلومات عن العدد الذي حملوه منها معهم، ولكن ما تركوه منها في محيط المدينة بعد الهزيمة وهو 300 مدفعا يدل على أنه كان عددا كبيرا. راجع:

Hammer, Histoire ..., op. cit., p 116 ; Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, g. e., s 453

[5] نتيجة وجودهم بأرض المجر، وحصارهم الأول للمدينة في عام 1529 م.

[6] هي خبرة ناتجة عن عمليات حصار كثيرة قاموا بها في أوروبا، ومن وسائل ذلك استخدام المدافع، وحفر الأنفاق، وهدم الحصون.

[7] Hammer, Histoire ..., op. cit., p 104

من قواتهم، وكان من القتلى والي الروميل كوجك حسن باشا[8]. وفي يوم الرابع والخمسين من الحصار (7 سبتمبر) تفقد الصدر الأعظم قره مصطفى باشا الجيش العثماني الذي كان يتشكل من مائتي ألف جندي، فوجد عدده قد نقص بنحو الرابع، ولكن مع ذلك فلم يقرر رفع الحصار، وأمر باستمراره، مع أن التقاليد العسكرية العثمانية التي كان يجري العمل بها آنذاك في عمليات الحصار تنص على أن الحصار إذا دام أربعين يوما ولم يحقق النتيجة المرجوة منه فإنه يجب رفعه والانسحاب عن المدينة المحاصرة. وبعد ثلاثة أيام من ذلك غيّر الصدر الأعظم خطة توزيع وحدات الجيش استعدادا لخوض معركة كبرى بعد أن وصلته معلومات استخباراتية تفيد وصول جيش الحلف الأوروبي الذي جرى إعداده في أوروبا للدفاع عن مدينة فيينا، وكان مكونا بشكل أساس من البولونيين والبافاريين والألمان، وقُدر عدده بمائة وعشرين ألف (120000) جندي. وفي يوم 12 سبتمبر وقعت تلك المعركة المنتظرة، وكانت معركة عظيمة بعظمة المدينة التي وقعت من أجلها، وخاضها الجانبان بكامل قواهما. وعندما وصلت الساعة الرابعة مساء بدأ العثمانيون يتراجعون في ميدان القتال، وبدأت مع ذلك كفة الانتصار تميل لصالح الأوروبيين. وعندما حلت الساعة السابعة كانت المعركة قد أشرفت على نهايتها. وبعد مدة قصيرة من ذلك تقررت نتيجتها التي كانت لصالح الأوروبيين. وانسحب العثمانيون إثر ذلك من ساحة القتال تحت جناح الظلام تاركين خلفهم عددا كبيرا من القتلى بلغ عشرة آلاف، زيادة على قسم من عتادهم العسكري، ومنه 300 مدفع، و5000 خيمة كان منها خيمة الصدر الأعظم قره مصطفى باشا بما احتوت عليه من أموال وسجلات إدارية وأسلحة وأشياء ثمينة خاصة[9]، وكذلك الرايات التابعة للجيش، وكان منها واحدة حمراء مزينة بآيات قرآنية اعتقد النمساويون خطأ أنها الراية الشريفة[10]، ولذلك أرسلوها هدية إلى البابا في روما، وحُفظت في كنيسة القديس بطرس[11]. وكانت ضخامة تلك الهزيمة والأخطار التي ترتبت عنها بالنسبة إلى الدولة العثمانية في مستوى ضخامة مشروع الفتح نفسه، والإمكانات العسكرية التي سُخّرت له، والنتائج التي كانت مرجوّة منه. ووصف المؤرخ النمساوي جوزيف دو هامر تلك الهزيمة وبأسلوب مزج فيه بين الفخر والحقيقة التاريخية، فقال: "كانت نتيجة المعركة أن أُنقذت مدينة فيينا، وتحطمت على أسوارها موجة القوة العثمانية الهدامة التي سبق أن هددتها مرة أخرى قبل ذلك بمائة وأربعة وخمسين عاما، وذلك في عهد السلطان سليمان، وكأن تلك الموجة واجهات سدا واقيا للحضارة المسيحية ضد البربرية الشرقية. وبعدما صارت تلك القوة تهدد وتبطش أكثر من أي وقت مضى، ها هي في النهاية تزول دون رجعة"[12].

وبعد الهزيمة انسحب قره مصطفى باشا على رأس الجيش العثماني نحو الشرق باتجاه "يانيق قلعه" بالمجر، ووصلها يوم 22 رمضان (14 سبتمبر)، وكان أبرز عمل قام به هناك إصدار أمر بإعدام والي بودين أوزون إبراهيم باشا، لاتهامه بالفرار من ميدان القتال، وكان بذلك سببا مباشرا في وقوع الهزيمة. وبعد أن قضى الصدر الأعظم هناك ثلاثة أيام أجرى خلالها تقييما عاما للوضع، واصل سيره نحو الشرق إلى أن وصل إلى مدينة بلغراد. وهناك أرسل إليه السلطان محمد

---

[8] Hammer, Histoire ..., op. cit., p 108

[9] يوجد وصف لمحتويات خيمة الصدر الأعظم في رسالة بعث بها الملك البولوني سوبيسكي الذي كان قائدا لجيش بلاده في المعركة، راجعها في: Hammer, Histoire ..., op. cit., p 117– 119

[10] الراية الشريفة هي الراية التي تنسب للرسول صلى الله عليه وسلم، وكان العثمانيون يصطحبونها معهم في معاركهم، وتسمى سنجاق شريف أيضا.

[11] حول الخسائر العثمانية في المعركة راجع:

Hammer, Histoire ..., op. cit., p 110 – 119 ; Uzunçarşılı, Osmanlı tarihi, g. e., s 452 - 453

[12] Hammer, Histoire ..., op. cit., p 120

الرابع، الذي كان قد أبلغ بالهزيمة، من نفذ فيه حكم الإعدام هو الآخر[13]. وكانت أخطر نتيجة ترتبت عن هزيمة فيينا دخول الدولة العثمانية في حرب طويلة الأمد ضد الحلف الأوروبي المقدس الذي تشكل ضدها في عام 1684 م على إثر تلك الهزيمة، وشاركت فيه كل من النمسا وبولندا وروسيا والبندقية. ودامت تلك الحرب التي كلفت الدولة العثمانية كثيرا من الخسائر في الأموال والأرواح، ست عشرة (16) سنة، وذلك حتى عام 1699 م حيث عقدت معاهدة كارلوفجه بين الجانبين، وفقدت الدولة العثمانية بموجبها أراض واسعة لصالح الدول المتحالفة، ومن ذلك بلاد المجر بكاملها، زيادة على أراض أخرى في شبه جزيرة القِرم شمالي البحر الأسود، وأُخرى على البحر الأدرياتيكي، وأقسام من أوكرانيا ورومانيا[14]. وفي ذلك كله إيذان ليس فقط بتوقف فتوحات الدولة العثمانية في أوروبا، وإنما ببداية تراجع حدودها عن القارة أيضا، وانتقال أراضيها هناك إلى خصومها الأوروبيين.

ب . معركة أوسطه والي (سطاوالي Staouèli - Staouëli):

هي المعركة التي وقعت يوم "19 جوان [1830 م] / 27 ذي الحجة [1245 هـ]"[15] بين الجيش الفرنسي الذي أُرسل لاحتلال مدينة الجزائر، وبين الجيش الجزائري العثماني الذي أُرسل لمقاومته ومنعه من تحقيق هدفه. وتنسب تلك المعركة حسب الكتابات الفرنسية التي أرّخت للحملة، إلى الاسم الذي أطلقه الفرنسيون على المكان الذي وقعت فيه المعركة، وهو (Staouèli). ويقع إلى الغرب من مدينة الجزائر، ويبعد عنها بمسافة نحو عشرين كيلومترا. وهناك روايات عديدة أوردتها الكتابات والتقارير التي أرّخت للحملة حول تحديد ذلك المكان بدقة. وإذا أخذنا بالتقرير الذي حرره قائد الحملة الكونت دو بورمون إلى رئيس مجلس وزراء بلاده يوم 22 جوان 1830، فإن قادة الحملة اعتقدوا في بداية الأمر، وبناء على تقارير وخرائط الأشخاص الذين زاروا مدينة الجزائر وأقاموا فيها من قبل، (ومنهم إيف بوتانYves Boutin عام 1808 م) أن المعركة وقعت في المكان المسمى (سطاوالي Staouëli). ولكن قادة الحملة ما لبثوا أن اكتشفوا خطأهم في تحديد اسم المكان الحقيقي الذي وقعت فيه المعركة، بعد أن اتضحت لهم المناطق المحيطة بمدينة الجزائر بعد وقوع الهزيمة بالجزائريين، وقياس المسافات الموجودة بينها، ومقارنة ذلك مع ما هو موجود على الخرائط، إذ تبين لهم أن المعركة وقعت في مكان آخر غير منطقة (سطاوالي). وبعد الاستفسار عن اسم ذلك المكان لدى الجنود الجزائريين الذين وقعوا أسرى لدى الجيش الفرنسي، تبين أنه (سيدي خالف Sidi-Khalef)[16]. وهذه الرواية هي التي اعتمدت عليها

---

[13] Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi ..., g. e., 457-458

[14] حول معاهدة كارلوفيتز راجع:

Œuvres complètes de l'abbé de Mably, T. 5, Lyon, J.B. De Lamolliere, 1792, pp 526-551

[15] Rozet (M), Relation de la guerre d'Afrique pendant les années 1830 – 1831, T. 1, Paris, 1832, pp 145 .

وهكذا حُدد التاريخ الذي وقعت فيه المعركة في المصدر المذكور بالتاريخين الميلادي والهجري. وتعد هذه الطريقة التي استخدمها النقيب روزي في التأريخ للأحداث المتعلقة بتاريخ الجزائر، نادرة في الكتابات الفرنسية، إن لم تكن الوحيدة. ويبدو أن النقيب روزي أراد أن يبلّغ فكرة معينة من خلال ذلك الاستخدام للتاريخين الميلادي والهجري معا، وذلك باعتبار التاريخ سجلا يُذكّر الشعوب بماضيها ويبرز شخصيتها. ومن ثمة فإن الجزائريين من خلال التاريخ الهجري يقرأون الهزيمة، والفرنسيون من خلال التاريخ الميلادي فيقرأون الانتصار. ولكن مع ذلك فإن النقيب روزي أمدّنا بمعلومة تاريخية مهمة تتعلق بتحديد اليوم الذي وقعت فيه المعركة بالتاريخ الهجري، وذلك ما لا نجده في المصادر العربية المحلية التي تعود إلى ذلك العهد، وأهمها مذكرات أحمد الشريف الزهار حيث نجد ذكرا للشهر الذي وقعت فيه المعركة وهو ذو الحجة، مع ذكر اليوم أيضا وهو السبت، وهو يوم أكدته المصادر الفرنسية أيضا، ولكن دون تحديد لما يمثله ذلك اليوم ضمن الشهر. (الشريف الزهار (أحمد)، مذكرات، تحقيق أحمد توفيق المدني، ط 2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980، ص 171- 172).

[16] Lesur (C. L.), Annuaire historique universel pour 1830, Appendice, 1ere partie, Paris, Thoisnier – Desplaces, 1832, pp 14-15

الكتابات الفرنسية التي أرخت للحملة بعد ذلك، وأوردتها بطرق مختلفة[17]، حتى أن هناك من ذكر بأن اسم المكان الحقيقي هو (Staouèli)، وإنما الخرائط التي اعتمد عليها الجيش الفرنسي في السير نحو مدينة الجزائر، ومنها الخريطة التي رسمها العقيد بوتان عام 1808 م، هي التي كانت تفتقد إلى الدقة، وأطلقت على المكان اسما آخر غير اسمه الحقيقي[18]. وإن اسم (Staouèli) أو (Staouëli)، واسم (Sidi-Khalef) اللذين ورد ذكرهما في المصادر الفرنسية، إنما هما "أوسطه والي" و"سيدي يخلف" الواردين في المصادر الجزائرية التي تعود إلى ذلك العهد[19].

وكان عدد الجيش الفرنسي في تلك المعركة نحو سبعة وثلاثين ألف رجل، يقوده الكونت دو بوربون[20]. أما الجيش الجزائري الذي أُرسل لمنع تقدم الفرنسيين نحو المدينة وصدهم عن احتلالها، فعدده غير معروف على وجه الدقة، وإن كان لا يقل في أدنى التقديرات عن عشرين ألف رجل[21]، وكان بقيادة إبراهيم آغا صهر حسين باشا، ويساعده اثنان من البايات هما باي الشرق (قسنطينة) أحمد باي، وباي تيطري مصطفى بومزراق، ومعهما خليفة باي الغرب (وهران). وبدأت المعركة بعد صلاة الصبح (في الساعة الرابعة ونصف)[22]، واستمرت إلى منتصف النهار[23]. وكانت مدتها نحو سبع

---

[17] نذكر من تلك الكتابات:

Desprez (François A.), Journal d'un officier de l'Armée d'Afrique, Paris, Chez Anselin, 1831, p 113 ؛ Ault-Dumensil, (E. d'), De l'expédition d'Afrique en 1830, Paris, l'Editeur, 1832, p 210, N 1 ؛Joanne (Adolphe), Voyage en Afrique, Paris, Delevingne, 1850, p 128 ؛Anonyme, Précis des opérations en Afrique du 13 mai au 28 juin 1830, dans: Le Spectateur militaire, T. 9/1830, Paris, 1830, p 448

[18] Piesse (Louis), Itinéraire historique et descriptif de l'Algérie, Paris, Hachette, 1862, p 71-72 Galibert (Léon), Histoire de l'Algérie ancienne et moderne, Paris, Furne, 1843, pp 289-290

[19] لا نريد أن نخوض في تحقيق الاسمين المذكورين هنا، ورأينا أن نؤجل ذلك إلى بحث آخر في المستقل.

[20] راجع تفاصيل مكونات الحملة البشرية والمادية في:

Pérrot (A. M.), La conquête d'Alger, Paris, H. Langlois, 1830, pp 42-67

[21] ذلك حسب تقدير الضابط بيليسي. اجع:

Reynaud (E. Pellissier), Annales algériennes, nlle éd., Paris, J. Dumaine, 1854, T. 1, p 42

وهناك تقديرات أخرى مختلفة، استند فيها مؤرخو الحملة إلى أقوال ضباط الجيش الجزائري الذين التقوا بهم بعد احتلال مدينة الجزائر، والقناصل الذين كانوا مقيمين هناك، فذكر بعضهم عدد أربعين ألفا. (راجع: Ault-Dumesnil, l'expédition d'Afrique ..., op. cit., p 55)، وقال بعضهم الآخر ليسوا أقل من خمسة وأربعين ألفا (Rotalier, Histoire d'Alger ..., T 2, p 445). ولكن هناك من قال بأن عدد أربعين ألفا الذي تبناه بعض المؤرخين مبالغ فيه كثيرا، ورأى بأن العدد الواقعي هو في أحسن الأحوال نحو خمسة وعشرين ألفا فقط (Desprez (François A.), Journal ..., op. cit., p 110)؛ وهناك من رفع ذلك العدد قليلا إلى ثلاثين ألفا، وقال بأنه لا يزيد عن ذلك (Rozet, Voyage dans la régence d'Alger, Paris, A.Bertrand, 1833, T. 3, p 368). وهناك مصادر أعطتنا بعض التفاصيل عن ذلك العدد، فذكرت أن القسم الذي كان يقوده إبراهيم آغا كان يتشكل من 3000 انكشاري، و5000 قول أوغلي، و6000 من سكان مدينة الجزائر، ومن وحدات تيطري (دون ذكر العدد)، و6000 من القبائل؛ ثم القسم الثاني الذي كان يقوده باي قسنطينة وكان يتشكل من: 1000 انكشاري، ووحدات قسنطينة ووهران (دون ذكر العدد)، و6000 من القبائل (Saint Denys, Considérations statistiques, historiques, militaires et politiques sur la régence d'Alger, Paris, Delaunay, 1931, p 176). ويعني ذلك أن العدد يتجاوز سبعة وعشرين ألفا، وقد يصل إلى أربعين ألفا.

[22] الزهار، مذكرات، مصدر سابق، ص 172. وكذلك: Rozet, Relation de la guerre ..., op. cit., pp 145, 158.

[23] Desprez, Journal, op. cit., p 106 ; Rotalier (ch. de), Histoire d'Alger et de la piraterie des Turcs dans la Méditerranée, t. 2, Paris, Paulin, p 443

ساعات ونصف. وكانت مشاركة الجزائريين فيها بمختلف فئاتهم: أتراكا وعربا وقبائل (بربر)، وشبابا وشيوخا، وحتى النساء. وأبدوا جميعا في المعركة شجاعة كبيرة، وذكاء معتبرا، واستشهد منهم كثير من الرجال، وقتلوا وجرحوا من الفرنسيين عددا كبيرا، كما شهد بذلك مؤرخو الحملة الفرنسية أنفسهم، من عسكريين ومدنيين[24]. ولكن مع ذلك كله فإن المعركة لم تنته لصالحهم وإنما لصالح الفرنسيين، وكانت الهزيمة مشابهة لهزيمة العثمانيين أمام أسوار فيينا عام 1683 م تماما، ففي كليهما كانت الهزيمة يوم السبت، وكان فرار الجيش العثماني من ساحة القتال وترك معداته ليستولي عليها العدو، ومنها خيمة القائد العام بما احتوت عليه من أموال وسجلات إدارية وأسلحة وأغراض خاصة وعامة. وقد وصف أحمد الشريف الزهار المعاصر آنذلك تلك الهزيمة التي مُني بها الجزائريون في معركة أوسطه والي أمام الفرنسيين، فقال: "فعند ذلك انهزموا (أي الجزائريون)، واسودت الوجوه في ذلك اليوم، ولا أحد لحق الآخر. فلما وصلوا لمكان المحلة[25] وجدوا الآغا [إبراهيم] قد هرب وترك ما عنده في المحلة، وصار الأعيان من الناس يربصون[26] الجند المنهزم، والجند لا يزيد إلا فرارا. فلما رأى النصارى هروب الناس وضعفهم هاجموا المحلة واستولوا على ما فيها، فأما العرب فكل واحد رجع لموضعه [...] وأما النساء من أهل البساتين فقد تركوا بساتينهم وأمتعتهم وأتيْن هاربين للبرد حفاة عراة [...] ثم أن العرب المنهزمين عندما رأوا أن العدو قد أخذ المحلة، قصدوا البساتين ونهبوا ما في أبراجها من أرزاق المسلمين ثم رجعوا لبلادهم"[27]. وأما المصادر الفرنسية فقد أفاضت في وصف تلك الهزيمة، لأنها كانت في المقابل انتصارا لهم ولحضارتهم وديانتهم، على الحضارة الإسلامية التي يعتبرونها بربرية، وعلى الدين الإسلامي الذي يعتبرونه هرطقة ومروقا. وكان أهم موضوع استقطب تلك المصادر وتحدثت عنه بتوسع، هي لحظة الهجوم الفاصل الذي قام به الجيش الفرنسي على الجزائريين وأرغمهم بواسطته على التراجع والفرار أمامه نحو معسكرهم الذي عجزوا عن الدفاع عنه، وأُرغموا على تركه خلفهم ليسقط بما احتوى عليه غنيمة حرب في يد عدوهم. وقد فصّلت المصادر الفرنسية في وصف لحظة الهزيمة تلك بالنسبة إلى الجزائريين، كما فصلت في ذكر الغنائم التي عثر عليها الجيش الفرنسي في المعسكر الجزائري. فيقول النقيب روزي: "وفي هذه الفترة فإن العدو (الجزائري) قد أُجبر على التراجع ثم الفرار نحو معسكره، وركض الجنود الفرنسيون les voltigeurs خلفه حتى المعسكر، وهناك اكتملت الهزيمة: فصار العرب والأتراك والقبائل Arabes, Turcs, Kbaiil يركضون في كل الاتجاهات [...]، وكذلك عدد كبير من الجمال والأغنام التي تركوها خلفهم، فصارت هي الأخرى تجري بين الخيام. أما الجنود الفرنسيون فهجموا على المعسكر ثم اجتازوه باحثين عن العدو في كل مكان [...]. فكان يجري في المعسكر أكثر من 150 من الجمال، وعدد كبير من البغال والأحمرة والبقر والغنم، فاستولى عليها الجنود الفرنسيون جميعا [...]. كما وُجد في المعسكر مخازن معبأة بالمؤن الغذائية والذخائر الحربية، وأكوام كبيرة من الشعير، ومن الخبز المصنوع من دقيق يتشكل قسم منه من الذرى (البيسكوي). كما وجد في المعسكر 284 خيمة، ووجد في أغلبها

---

[24] راجع بعض تلك الشهادات في:

Ault-Dumensil, De l'expédition ..., op. cit., p 56; Nettement, histoire de la conquête ..., op. cit., p 377-378, 385-386 ; Rozet, Relation de la guerre..., op. cit., p 146, 163 - 164 ; Saint-Denys, Considérations ..., op. cit., pp 172, 174.

[25] مكان المحلة: يقصد به هنا المعسكر الذي أقامه الجزائريون في أوسطه والي.

[26] يربصون: بمعنى يتربصون، وينتظرون.

[27] الزهار، مذكرات، مصدر سابق، ص 172.

المؤن، والقهوة، والسكر، والبرتقال، والليمون، وكثير من التبغ، وغليونات ذات أنابيب من الخشب اختطفها الجنود الفرنسيون بشراهة كبيرة. أما في خيام الضباط والقادة فوجدنا أشياء ثمينة وكميات من الفضة"[28].

وورد في مصدر آخر للضابط دومَنسيل: "لقد هجم جنودنا على معسكر سطاوالي وحماس القتال وفرحة الانتصار تحيط بهم من كل جانب، أما العدو فقد انسحب منه بفوضى كبيرة. وإن قساوة الجزائريين ودمَويتَهم التي كانت تدفعهم إلى قطع رؤوس الفرنسيين بسيوفهم دون رحمة ولا شفقة أثناء القتال، أدت إلى وقوع أعمال انتقام كبيرة منهم أثناء المعركة. ولم نقبض سوى على عدد قليل من الأسرى منهم، ولكن بعد أن سيطرنا على معسكر سطاوالي الواسع فإننا غنمنا رايات العدو الصغيرة والكبيرة، وأثْواغهم، وأسلحتهم، وجميع مدافعهم. ووجدنا به البارود، والقذائف، ونسخة جميلة من القرآن، وسجلات الجيش ووثائق قائد الجيش التركي (الآغا) الشخصية، والمؤن، والتبغ، والقهوة، والسكر، والنقود الذهبية والفضية، كما وجدنا قطيعا من الغنم، ونحو مائة من الجِمال [...]. وكانت توجد في معسكر سطاوالي نحو ثلاثمائة من الخيام المصنوعة من القماش الأبيض، وهي أكبر من خيامنا، وأوسع منها وأكثر تهوية [...]، ومن بينها خيمة قائد الجيش التركي (الآغا)، وخيمة باي تيطري، اللتان تركهما العدو في المعسكر بعد فراره غير المنتظر. وكانت الخيمتان تحتلان مكانا فسيحا في المعسكر وتبدوان كأنهما ملكتان عظيمتان، وكانتا واسعتين كثيرا، ومرتفعتين، ولهما شكل شُرقي يثير الإعجاب، وكل خيمة مقسمة طوليا إلى ثلاثة أجنحة غير متساوية، وكان أحدها أكبر من الجناحين الآخرين مجتمعين، وهو مخصص لصاحب الخيمة (الآغا أو الباي)، والجناح الثاني لنسائه، والثالث لعقد مجالس الاستقبال. وكان القسم الداخلي لهاتين الخيمتين مصنوعا من قماش نُسج من الصوف ولونه أحمر وأصفر. وهما مزينتان برسومات جميلة ومختلفة. أما من الخارج فلهما غطاء مصنوع من قماش أبيض يشبه قماش الخيام الأخرى"[29].

وأما الخسائر البشرية التي أسفرت عنها المعركة فإن المصادر الفرنسية اختلفت حولها، فبالنسبة إلى الجيش الفرنسي، فذكرت بعض المصادر 57 قتيلا و473 جريحا[30]، وذكر بعضها الآخر 53 قتيلا و140 جريحا[31]. أما بالنسبة إلى الجيش الجزائري فإن المصادر لم تستطيع أن تحدد ذلك، واكتفت بالقول بأنها كانت كبيرة بسبب عمليات القتل الواسعة التي كانت تحدثها المدفعية في صفوف الجزائريين[32]. وقد حاول بعض اصحاب تلك المصادر أن يعبر عن ذلك العدد الكبير بالأرقام فقال أنها بلغت نحو ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف[33]. وكان السبب الرئيسي في عدم تمكن الفرنسيين من معرفة عدد القتلى والجرحى لدى الجزائريين، أنهم (أي الجزائريين) كانوا لا يتركون قتلاهم ولا جرحاهم في ميدان المعركة،

---

[28] Rozet, Relation de la guerre ..., op. cit., pp 156-159

[29] Ault-Dumensil, De l'expédition d'Afrique ..., op. cit., pp 57 – 58, 60 – 61 .

وبعد ذلك عبر الضابط الفرنسي (ص 61) عن التعصب الديني والثقافي الذي رافق الحملة الفرنسية، فأكمل وصفه لهزيمة الجزائريين وانتصار الفرنسيين عليهم في معركة أوسطه والي بالحديث عن القُداس la messe الذي أقامه الجيش الفرنسي في شبه جزيرة سيدي فرج في اليوم الموالي ليوم المعركة (وهو يوم الأحد)، فقال: "إن ذلك القداس المسيحي كأنه جاء ليتوّج عودة الحرية والحضارة اللتين أنجبهما الإنجيل de la liberté et de la civilisation, filles de l'Evangile، إلى هذه البلاد حيث كان يسود قبل ذلك ببضعة أيام فقط الاستبداد والبربرية اللذين أنجبهما القرآنle despotisme et la barbarie, enfants du koran".

[30] Desprez, Journal ..., op. cit , pp 109-110 ؛Saint-Denys, Considérations ..., op. cit., p 178

[31] Rotalier, Histoire ..., op. cit., p 444

[32] Saint-Denys, Considérations ..., op. cit., p 178

[33] Rotalier, Histoire ..., op. cit., p 444 ؛Saint-Denys, Considérations ..., op. cit., p 178

وإنما يسحبونهم خارجه، فالجرحى يحملونهم بأيديهم، أما الموتى فيشدونهم بحبال ويسحبونهم بواسطة خيولهم[34]. وهو العمل الذي استقطب مؤرخي الحملة الفرنسية كما سجلوا ذلك بوضوح في كتاباتهم، وفسروا ذلك بكون الجزائريين يعتبرون ذلك العمل واجبا يفرضه عليهم دينهم الإسلامي[35]. ولكن مع أن ذلك العمل يعبر عن قيم عسكرية نبيلة كان يتحلى بها العسكريون الجزائريون، فإن هؤلاء المؤرخين لم يجدوا أي حرج في وصفهم بالبرابرة[36].

وأمام تلك الهزيمة الثقيلة التي مني بها الجزائريون في معركة أوسطه والي، انفتح الطريق أمام الفرنسيين نحو مدينة الجزائر. وهناك من ذكر آنذاك أن الجيش الفرنسي كان بإمكانه مواصلة زحفه نحو المدينة بعد المعركة، وكانت له القدرة على الوصول إليها واحتلالها في اليوم نفسه أو في اليوم الموالي من المعركة، ولكن القائد العام للحملة "الكونت دوبورمون" فضّل التريث وعدم المغامرة في مثل ذلك العمل، ورأى أن يكون سيره نحو المدينة بخطى محسوبة وثابتة[37]. ولذلك تأجل احتلال الفرنسيين للمدينة بعد معركة أوسطه والي بستة عشر يوما أخرى، خاضوا فيها مناوشات متفرقة ضد الجزائريين، وفي يوم 14 محرم 1246 هـ / 5 جويلية 1830 م دقوا أبوب المدينة وأرغموا حسين باشا على توقيع معاهدة الاستسلام التي أنهت الوجود العثماني في الجزائر وأعلنت بداية عهد الاحتلال الفرنسي.

ثانيا: أسباب الهزيمة في المعركيتن كما يراها المؤرخون:

إن أسباب هزيمة العثمانيين أمام الأوروبيين في معركتي فيينا في النَّمسا يوم السبت 20 رمضان 1094 هـ (12 سبتمبر 1683 م)، و"أوسطه والي" في الجزائر يوم السبت 27 ذي الحجة 1245 هـ (19 جوان 1830 م)، قد تناولتها الكتابات التاريخية المعاصرة آنذاك، كما تناولتها الكتابات الحديثة أيضا، من تركية وعربية وأوروبية. وهي تتلخص في مجملها وبشكل أساس في عدم كفاءة القيادة العامة للجيش، وغياب الانضباط في صفوف الجنود، وصعوبة الظروف المحيطة بالمعركة، وضعف التخطيط. وإذا أتينا إلى هزيمة فيينا فإننا نجد أسبابها حسب تلك الكتابات تتلخص في ثلاثة عناصر: أ

السبب الأول هو الأنانية والطمع اللذان اتصف بهما قائد الجيش قره مصطفى باشا. ويعني ذلك أنه لم يكن له هدف عسكري عام يجسد فيه شخصية الدولة التي ينتمي إليها ويتولى فيها أعلى وظيفة سياسية وعسكرية بعد السلطان، وهي الصدارة العظمى ومعها قيادة الجيش، وإنما كان له هدف شخصي يتمثل في ميله لكسب الشهرة من جهة، والاستيلاء على كنوز فيينا من جهة ثانية، وسعيه لتأسيس مملكة مستقلة عن الدولة العثمانية تكون عاصمتها فيينا من جهة ثالثة. وكل ذلك دفعه إلى عدم السماح للجيش بالقيام بهجوم عام على المدينة والاكتفاء بحصارها لدفعها إلى الاستسلام له، وهدفه من ذلك منع نهبها على يد الجيش بعد الفتح، وانتقالها إلى يديه دون خسارة تلحقها أو ضرر يصيبها[38].

---

[34] Desprez, Journal ..., op. cit., pp 111

[35] Rotalier, Histoire ..., op. cit., p 444

[36] Rotalier, Histoire ..., op. cit., p 444) ويقول صاحب المصدر في ذلك: Les Barbares enlevaient les morts et les blessés, et montraient souvent dans l'accomplissement de ce pieux devoir la plus grande hardiesse.(

[37] هذه الرؤية تذكرها المصادر الفرنسية التي أرخت للحملة (Desprez, Journal ..., op. cit., pp 113-114)، كما تذكرها المصادر الجزائرية المعاصرة آنذاك أيضا (الزهار، مذكرات، مصدر سابق، ص 172.

[38] Uzunçarşılı (Ismail Hakkı), Osmanlı Tarihi, 3. Cılt, 1 kısım, 3. baskı, Ankara, TTK Basımevi, 1983, s 441 ؛

اوزتونا (يبلماز)، تاريخ الدولة العثمانية، تعريب عدنان محمود سلمان، ج 1، إستانبول، مؤسسة فيصل للتموين، ص 534؛ وانظر أيضا: Hammer, Histoire ..., op. cit., pp 121-122

والسبب الثاني الثاني هو خيانة القيادات الفرعية للجيش العثماني، والتي كانت تريد الإيقاع بقائد الجيش قره مصطفى باشا، ولا تودّ أن يعود إلى إستانبول منتصرا، وإنما ذليلا ليعاقب ويحكم عليه بالإعدام. وجسد تلك الخيانة خان القِرم مراد كيراي الذي سمح لجيش الحلفاء بالمرور عبر الجسر الممتد على نهر الدانوب والوصول إلى ساحة القتال، ثم إبراهيم باشا حاكم بودين (بالمجر)، الذي انسحب من ميدان القتال وفر متوجها نحو الشرق[39].

والسبب الثالث هو السأم الذي أصاب الجنود بسبب طول مدة الحصار وعدم تحقيق هدفهم بفتح المدينة، زيادة على انحرافهم وعدم انضباطهم، وتجلى ذلك في انشغالهم بجمع الغنائم طوال مدة الحصار، ومعاشرتهم المفرطة للنساء، زيادة على تناولهم الخمر الكثير. وكل ذلك أثر على قدراتهم القتالية في المعركة، وسبّب في النهاية الهزيمة في المعركة[40].

والأسباب المذكورة في العنصرين الثاني والثالث، فكما ذُكرت في الكتابات التاريخية التي تعود إلى عصرنا الحديث، فإنها ذكرت في كتابات أخرى معاصرة للمعركة أيضا، وهو ما نجده في يوميات تشريفاتجي باشي محمد آغا الذي رافق الجيش العثماني في الحملة إلى جانب الصدر الأعظم قره مصطفى باشا، وحضر معه أيام الحصار كما حضر المعركة أيضا[41].

والسبب الرابع هو نفاد المؤن الغذائية، سواء ما تعلق منها بالجنود، أم ما تعلق بالحيوانات التي يستخدمها الفرسان وفرقة المدفعية، من خيول وبغال وثيران[42].

أما إذا أتينا إلى معركة أوسطه والي بالجزائر، فإن خير ما يبين أسباب الهزيمة فيها هو ما أورده حمدان بن عثمان خوجه المعاصر آنذاك[43]، ثم الدكتور أبو القاسم سعد الله في عصرنا الحديث[44]. وملخص تلك الأسباب نجدها في كتاب التاريخ المدرسي المخصص لتلاميذ السنة الرابعة من التعليم المتوسط بالجزائر، وهي كما يأتي:

1 . إسناد القيادة العامة لقائد غير كفء سمح بخطته الهزيلة، لجنود الحملة بالنزول إلى البر، ولم يوافق على الخطة التي قدمها مساعدوه له والمتمثلة في مواجهتهم بالقتال عند لحظة الإنزال. وذلك القائد غير الكفء هو إبراهيم آغا صهر حسين باشا الذي عُين على رأس الجيش بدلا من يحيى آغا الذي ظل يشغل ذلك المنصب مدة اثنتي عشرة سنة.

2 . إبقاء القبائل المتطوعة للقتال بعيدا عن المدينة بهدف التخفيف من النفقات المالية.

3 . خطأ الداي وديوانه العسكري في تنظيم الدفاع، واعتقادهم أن التحصّن في قلاع العاصمة هو الخطة الحربية المناسبة[45].

---

[39] أوزتونا، تاريخ ...، مصدر سابق، ص 531 . 532 ، 534

[40] أوزتونا، تاريخ ...، مصدر سابق، ص 533.

[41] راجع عمله في:

Kreutel (Richard F.), Viyana önlerinde Kara Mustafa Paşa, çeviren, Müjdat kayayerli, İstanbul, Esra yayınları, 1994 .

وبيّن محمد آغا الأسباب التي كانت وراء الهزيمة التي لحقت الجيش العثماني في المعركة، في أربعة عناصر. (راجعها في المصدر نفسه، ص 99 – 105).

[42] Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, g. e., s 449

[43] حمدان بن عثمان خوجه، المرآة، عربه محمد بن عبد الكريم، بيروت، مكتبة الحياة، 1972 م، ص 155 – 165.

[44] سعد الله (أبو القاسم)، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، بداية الاحتلال، ط 3، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982 م، ص 36 – 43.

ثالثا: أسباب الهزيمة في المعركتين كما يظهرها الواقع التاريخي:

أ - القوة القتالية لدى الجيوش من قوة مجتمعاتها:

إن الحرب هي من جميع أوجهها فعل تقوم به فئتان من الناس تعملان تحت قياديتن، ويتبادلان أثناءه القتال بينهما بواسطة السلاح. وذلك الفعل هو الذي نصطلح عليه عليه هنا بالفعل القتالي. وهو المجال المناسب لتفسير النتائج التي تسفر عنها الحروب، سواء كانت هزيمة أم انتصارا. ويبدو أن هذه الصورة للحرب تنطبق على الحروب في الماضي، كما تنطبق عليها في العصر الحديث، وفي المستقبل أيضا. ومن ثم فلكي نتبين أسباب الهزيمة التي تعرض لها جيش من الجيوش على يد جيش آخر، أو الانتصار الذي حققه عليه، فينبغي أن يكون لدينا مفهوم محدد للفعل العسكري. إذ هو ليس مجرد تحريك لأدوات الحرب من جنود وسلاح، وإنما هو فعل أكبر من ذلك بكثير، إذ تتحكم فيه مؤثرات كثيرة وعوامل متعددة، بعضها معنوية، وبعضها مادية، وبعضها تكتيكية. فالمؤثرات والعوامل المعنوية هي بشكل عام الأفكار التي يتبناها كل واحد من طرفي القتال وبموجبها يرى أنه صاحب الحق في تلك الحرب، وهي في مجملها أفكار دينية وسياسية غرضها تقوية إرادة القتال لدى الجيش المحارب؛ أما المؤثرات والعوامل المادية فهي السلاح وآلات القتال المختلفة المستخدمة في مواجهة العدو، وأما المؤثرات والعوامل التكتيكية فهي الفنون المستخدمة في العمليات القتالية بشكل عام، من تنظيم للجيش وتخطيط للمعركة واختيار لطرق القتال. وإذا كانت المؤثرات والعوامل المعنوية هي وسائل يستوحيها الجيش من رصيد المجتمع التاريخي والديني والسياسي، فإن المؤثرات والعامل المادية والتكتيكية هي وسائل يستوحيها من رصيده في التقدم الحضاري القائم على المعرفة والصناعة. وفي هذا الجانب الأخير (المادي والتكتيكي) يكمن في معظم الأحيان القسط الأكبر من القوة القتالية للجيش المحارب. وفي ضوء مستوى تلك المؤثرات والعوامل تتحدد قوة الجيش، ويتضح مصيره في المعركة التي يخوضها: فإما الانتصار وإما الهزيمة[46]. ومن ثم يتبين لنا أن الفعل العسكري ليس فعلا فرديا منعزلا يقوم به الجيش في ميدان المعركة دون أن يشاركه فيه أي طرف آخر خارجي، وإنما هو فعل اجتماعي يقوم به الجيش نيابة عن المجتمع الذي ينتمي إليه، ويوظف فيه طاقات ذلك المجتمع الحضارية الشاملة، من دين وسياسة وثقافة وقيَم وفنون وعلوم وصناعات (تكنولوجيا). ومن ثمة تبدو لنا العلاقة الوطيدة بين الجيش والمجتمع الذي ينتمي إليه. ويعني ذلك أن الجيش العثماني الذي قاتل في فيينا (1683 م) وأوسطه والي (1830 م) إنما كانا يمثلان المجتمع العثماني آنذاك، أما الجيش النمساوي والبولوني في معركة فيينا، والجيش الفرنسي في أوسطه والي، فكانا يمثلان المجتمع الأوروبي. ويعني ذلك أن المعركتين إذا كانتا في ظاهرهما مواجهة عسكرية بين جيشين، فإنهما في الباطن كانتا مواجهة بين مجتمعين. ومن ثمة فإن البحث عن أسباب النتيجة التي أسفرت عنها المعركتان، لا يكون في مكونات الجيشين المتحاربين، والظروف التي وقعت فيها المعركتان، وإنما في يكون المجتمعين اللذين ينتمي إليهما الجيشان المتحاربان، وذلك من خلال معرفة مستوى التقدم الحضاري الذي كان عليه كل واحد منهما بالنسبة إلى الآخر، وكان جيشه يستمد منه القوة القتالية التي وظفها في الفعل العسكري في ميدان المعركة. وإن الاختلال وعدم التكافؤ والتوازن الذي كان حاصلا في مستوى التقدم الحضاري بين المجتمع الأوروبي والمجتمع العثماني في العهد الذي تعود إليه

---

[45] مجموعة من الأساتذة، تاريخ المغرب العربي الحديث، الجزائر، سلسلة التاريخ المدرسي، السنة الرابعة متوسط، الجزائر، المعهد التربوي الوطني، 1982 . 1983 م، ص 57 . 58.

[46] والقوة العسكرية تلك هي التي تحدث عنها الله عز وجل في قوله تعالى: "وأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ومِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وعَدُوَّكُمْ وآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُم اللهُ يَعْلَمُهُم، ومَا تُنْفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُون" (سورة الأنفال/ الآية 60).

المعركتان، قد امتد من غير شك أثره إلى ميدان القتال بين جيشهما في "فيينا" و"أوسطه والي"، وهو الذي كان وراء تحديد نتيجة المعركتين ومصير كل واحد من الجيشين المتحاربين فيهما، وليس غيره. ذلك أن الجيشين المتحاربين: الأوروبي والعثماني، اللذين جمعتهما المعركتان إذا كانا من جهة يمثلان منظومتين مختلفتين دينيا وسياسيا واجتماعيا وجغرافيا، فإنهما من جهة أخرى يمثلان مستويين مختلفين أيضا من حيث القوة القتالية المستمدة من التقدم الحضاري للمجتمع الذي ينتمي إليه كل منهما، فأحدهما كان مجتمعا متقدما وهو المجتمع الأوروبي، وآخر كان متخلفا وهو المجتمع العثماني. ومن ثم فإن المواجهة في المعركتين كانت بصورة أخرى مواجهة بين والتقدم والتخلف، ويعني ذلك بلغة عسكرية بين القوة والضعف. وتلك الصورة هي التي عبّر عنها أحمد باي (حاكم مقاطعة الشرق في الجزائر) لمّا قدم من قسنطينة إلى مدينة الجزائر في جوان 1830 م، وصادف وصوله إليها نزول الحملة الفرنسية في شبه جزيرة سيدي فرج، فأمره حسين باشا بالتوجه إلى هناك على رأس مَحلّتِه لمقاتلة الفرنسيين برفقة إبراهيم آغا الذي عينه قائدا عاما للجيش الجزائري. وهنا يذكر أحمد الشريف الزهار أن أحمد باي لما نزل في ضواحي "سيدي فرج" وشاهد الجيش الفرنسي فإنه "كتب للباشا يخبره بقوة النصارى وبضعف جيوشنا، ويستأذنه برجوع محلة الشرق للجزائر، فأذن له، ورجعت المحلة"[47]. وبناء على ذلك فإننا لكي نفهم أسباب هزيمة الجيش العثماني في معركتي فيينا وأوسطه والي، فإن علينا نجيب على السؤال الآتي: ما هي مظاهر التقدم الحضاري التي كان يتوفر عليها المجتمع الأوروبي، واستمد منها الجيش الأوروبي قوته القتالية في المعركتين؟

ب - مظاهر القوة الاجتماعية المؤثرة في القوة القتالية للجيشين الأوروبي والعثماني:

1 - ثورة الطباعة:

نقصد بثورة الطباعة الانقلاب الكبير الذي حدث في أوروبا في عالم الكتاب الذي يقوم عليه انتشار الثقافة والفكر والتعليم والمعرفة في المجتمع. وتم ذلك بفضل آلة الطباعة التي اخُترعت في منتصف القرن الخامس عشر (1452 م). وكما هو معلوم أن المجتمع الأوروبي قد سادته في ذلك القرن صحوة عقلية عالية صار الإنسان بموجبها يُقدّر في المجتمع ليس بانتمائه الاجتماعي وثروته ووظيفته، وإنما بما يُقدّمه للمجتمع من خدمة ترفع من مستوى حياته، وتُحسّن معيشته، وتحل مشاكله، وتحمى صحته، وتحفظ أمنه، وتُطوّر اقتصاده، وتُنمّي فكره وثقافته، وتحفظ حريته، وتُسهّل عليه مجابهة الطبيعة والتغلّب على عوائقها في البر كما في البحر. وتلك الصّحوة هي التي اصطُلح عليها باسم النهضة. ووسط تلك الصحوة، وفي ذلك التاريخ بالتحديد، تم التوصل إلى تحقيق واحد من أكبر الاختراعات في تاريخ البشرية ويتمثل في آلة الطباعة، وهو الاختراع الذي تم بمدينة "ماينس" الألمانية على يد المهندس غوتنبورغ، وجاء مكملا لعملين حضاريين آخرين سابقين له هما: اكتشاف صناعة الورق، وتأسيس مؤسسات التعليم العالي التي تسمى الجامعات. وبذلك توفرت الوسائل الأساسية لانتشار الكتاب الذي يعد أهم وسيلة تعليمية في المجتمع. فظهر في المجتمع الأوروبي من يؤلفه، ومن يصنعه، ومن يوزعه في أرجاء القارة، ومن يشتريه ويقرؤه. وهكذا تأسست المطابع التي تهتم بطبع الكتاب في مختلف المدن الأوروبية، وكان منها مدينة "فيينا" عاصمة النمسا، التي حاصرها العثمانيون عام 1094 هـ / 1683 م،

[47] الزهار، مذكرات، مصدر سابق، ص 172.

فأسست بها أول مطبعة عام 1482 م[48]، ومدينة "كراكوفيا" عاصمة بولندا (بولونيا) التي شارك جيشها بقيادة ملكها صوبيسكي Sobieski، إلى جانب النمساويين في صد العثمانيين عن فيينا، فأسست بها أول مطبعة عام 1474 م[49]، وأما باريس عاصمة فرنسا (التي تحمل جنسيتها الملكة ماريات Mariette زوجة الملك البولوني صوبيكي المذكور، وبها تربى وتلقى تعلمَيه وتدريبَه على القتال الأمير الشهير أوجان دو صافوا Eugène de Savoie الذي كان أحد أبرز من قاتل العثمانيين قرب أسوار "فيينا"، وبعدها في المجر وصربيا لما تشكل الحلف الأوروبي ضد العثمانيين، وهي كذلك (أي فرنسا) التي هَزم جيشُها الجيش الجزائري العثماني في معركة أوسطه والي بالجزائر عام 1830 م)، فإن المطبعة الأولى التي أُسست بها تعود إلى عام 1470 م، وكذلك الحال في البندقية التي كانت إحدى القوى الأساسية في تشكيل الحلف الأوروبي ضد العثمانيين بعد معركة فيينا. وهكذا ظلت المطبعة تنتشر في أوروبا حتى عمت أغلب مدنها، وما أن انتهى القرن الخامس عشر حتى بلغ عدد المدن التي أُنشئت بها المطابع في القارة مائتين وستين (260) مدينة، أما عدد المطابع التي كانت تعمل في تلك المدن فبلغ عددها ألفين ومائة (2100) مطبعة[50]. وكمثال على انتشار المطبعة في الدولة الواحدة فإن فرنسا بلغ عدد المدن التي أسست بها المطبعة في عام 1500 م، سبعا وأربعين (47) مدينة، أضيف إليها خلال القرن السادس، عشر خمسا وتسعين (95) مدينة أخرى. وليس ذلك فحسب، وإنما تعددت المطابع في المدينة الواحدة، وصار هناك في عام 1500 م، من المدن التي وُجد بها عشرات المطابع، وذلك مثل مدينة ليون حيث بلغ العدد بها خمسين (50) مطبعة، وباريس حيث بلغ خمسا وثلاثين (35) مطبعة[51].

وكانت الخدمات التي قدمتها الطباعة للمجتمع الأوروبي في ذلك العصر هي الخدمات نفسها التي تقدمها لكل العالم في عصرنا الحديث، ويتمثل معظمها في تيسير سبل التعليم لأفراد المجتمع في المؤسسات التعليمية وخارجها. وذلك بأن طورت صناعة الكتاب وجعلتها أكثر إنتاجا مما كانت عليه من قبل لما كان نشرُ الكتاب يُعتمد فيه على النسخ اليدوي (أي المخطوط). وحسب إحدى الدراسات فإن أربعة ملايين (4000000) نسخة من الكتب المختلفة وُزّعت في أوروبا حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، أي بعد أقل من نصف قرن فقط من اختراع آلة الطباعة. وأشارت دراسة أخرى أن اثنين وعشرين مليونا وتسعمائة واثنين وثلاثين ألف (22932000) نسخة من كتب مختلفة تناولت اثنين وثلاثين ألفا وخمسمائة واثنين وثلاثين (32532) موضوعا، وُزّعت بين سنتي 1467 و1547 م (أي في خلال ثمانين سنة فقط). وذكرت دراسة ثالثة أن الخمسين سنة التي تلت صدور التوراة ذي الاثنين والأربعين سطرا والذي نشره غوتنبرغ في عام 1455 م، قد عرفت صدور خمسة وثلاثين ألف (35000) طبعة لكتب مختلفة بلغ مجموع نسخها بين خمسة عشرة وعشرين

---

[48] Revue française d'histoire du livre, société des bibliophiles de Guyenne, Bordeaux, N° 110-111/2001, p 251 ; Dupont (Paul), Histoire de l'imprimerie, T.2, Paris, Toux les Libraires, 1854, p 566

[49] Chodzko (Léonard), la pologne, 6e éd., Paris, Bureau Central, 1846, p 454

مع العلم أن مصادر أخرى تورد عام 1485 م، وأخرى تورد عام 1503 م.

[50] ستيبتشفيتش (ألكسندر)، تاريخ الكتاب، القسم الثاني، ترجمة محمد الأرناؤوط، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1413 هـ/ 1993م، ص 89-104؛ وراجع أيضا:

Printing, in : Encyclopaedia Britanica, vol. 18; Audin (Maurice), Histoire de l'imprimerie, Paris, Picard, 1972, p 118-120 ; Chauvet (Paul), Les ouvriers du livre en France des origines à la révolution de 1789, Paris, P.U.F., 1959, p 6.

[51] ستيبتشفيتش، تاريخ الكتاب، مصدر سابق، ص 89-104؛ وراجع أيضا:

Printing, in : Encyclopaedia Britanica, vol. 18 ; Audin, Histoire de l'imprimerie, op. cit., pp 118-120 ; Chauvet (Paul), Les ouvriers du livre en France des origines à la révolution de 1789, Paris, P.U.F., 1959, p 6..

مليونا. وحسب الدراسة نفسها فإن المائة سنة التالية بين عامي 1500 و1600 م قد عرفت صدور بين مائة وخمسين ومائتي ألف طبعة لكتب أخرى. وبمعدل ألف نسخة فقط لكل طبعة فإننا نجد أن أوروبا طبع بها بين مائة وخمسين ومائتي مليون نسخة من الكتب في تلك الفترة. وحسب دراسة أخرى فإن مطابع باريس وحدها أصدرت في الفترة نفسها (القرن السادس عشر) خمسة وعشرين ألف (25000) طبعة لكتب مختلفة، وأصدرت مطابع ليون في الفترة نفسها أيضا ثلاثة عشر ألف (13000) طبعة لكتب أخرى[52]. وكان ذلك كله قبل عام 1683 الذي حاصر فيه العثمانيون عاصمة فيينا.

وإذا تقدمنا نحو القرن التاسع عشر، وبالتحديد إلى عام 1245 هـ / 1830 م حيث وقعت معركة "أوسطه والي" بالجزائر، بين الفرنسيين والجزائريين، فإن واقع الطباعة في أوروبا نجده قد تطور أكثر. ويكفي للدلالة على ذلك أن نقدم معلومات عن ذلك الواقع تتعلق بفرنسا التي هزمت الجزائريين في تلك المعركة، واحتلت بلادهم بعدها. فحسب الإحصاءات التي قدمها الباحثون الفرنسيون فإن عام 1825 م لوحده شهد طبع بين ثلاثة عشر وأربعة عشر مليون نسخة من الكتب، وكان منها أكثر من أربعمائة ألف (400000) نسخة طبعت في مطبعة فيرمين ديدو Firmin Didot الشهيرة بباريس، والتي كان يشتغل بها ثلاثة وثلاثين ألفا وسبعمائة وخمسين (33750) عاملا[53]. وبحساب العناوين فإن مطابع فرنسا أصدرت في السنة المذكورة سبعة آلاف وستمائة وخمسة (7605) من العناوين، وفي السنة الموالية (1826 م) أصدرت ثمانية آلاف ومائتين وثلاثة وسبعين (8273) عنوانا[54]. وبحساب الورق فإن تلك المطابع أصدرت بين عامي 1813 و 1825 م أكثر من مليار ومائة مليون ورقة، (وبالتحديد: 1.152.295.237 ورقة)، من بينها نحو 56 مليونا ورقة (وبالتحديد 56.215.692 ورقة) استغلت في طبع الصحف والمجلات الإخبارية، والباقي استغل في طبع الكتب بمختلف موضوعاتها العلمية والأدبية والقانونية والدينية ونحوها[55]، ونسبة ذلك 95 %.

وقد انعكس عمل المطبعة على القوة العسكرية الأوروبية من جوانب متعددة: أحدها التعليم العسكري في المدارس الحربية التي أنشئت في مختلف دول القارة كما حدث في فرنسا، حيث استُغلت في توفير المؤلفات المتخصصة التي تغطي المقررات التعليمية في تلك المدارس، وتنشر فيها الأبحاث التي تتناول الاختراعات والابتكارت العسكرية، وكان الطلبة يجدونها في المكتبات العامة أو يشترونها بأنفسهم من الأسواق. فتذكر الإحصاءات المتعلقة بنشر الكتاب في فرنسا لعام 1825 م، أن من ضمن ستة آلاف ومائة وثلاثة وأربعين (6143) عنوانا نشر في تلك السنة، كان منه مائة وستة (106) عناوين تتعلق بالإدارة والتاريخ العسكري Administration et histoire militaire . وهناك إحصاء آخر يتعلق بالسنة الموالية (1826 م)، وخصص لتحديد كمية الورق المستخدمة في الطباعة، فجاء فيه أن من بين نحو مائة وأربعة وأربعين (144) مليون ورقة (وبالتحديد 144561094 ورقة) استخدمت في طبع المؤلفات في تلك السنة، كان منها مليون ونصف (1,5 مليون) ورقة (وبالتحديد 1445982 ورقة) استخدمت في طبع المؤلفات التي تتناول الموضوعات العسكرية écrits

---

[52] ستبيتشفيتش، تاريخ الكتاب، مصدر سابق، ص 113. وراجع أيضا:

Chauvet (Paul), Les ouvriers du livre en France des origines à la révolution de 1789, Paris, P.U.F., 1959, p 6 ; Daumas (Maurice), Histoire générale des techniques, T.2, les origines de la civilisation technique, Paris, P.U.F., 1962, pp 664-665

[52] Coolen (Georges), La diffusion de la pensée du temps des manuscrits à la bible de Gutenberg, ext. Du Bull.de la Soc. Des Antiquaires de la Morinie, T.20, 1963, p 44 ; Larivaille (Paul), Le 16° siècle italien, Paris, Seghers, 1971, pp 70-71 ;

[53] Dalery (M), Venise et ses environs, Bruxelles, Hauman, 1842, p 75, n 1

[54] Lesur (C .L), Annuaire historique universel pour 1826, Paris, A. Thoisnier-Desplaces, 1827, p 266 - 267

[55] Lesur, Annuaire ... pour 1826, op. cit., pp 267

militaires، ونسبتها (1 %)[56]. ومن الأمثلة التي نسوقها هنا حول تلك المنشورات "نشرية العلوم العسكرية Bulletin des sciences militaires" التي تأسست في عام 1824، وصدر منها حتى عام 1831 م عشر مجلدات؛ ثم "مجلة العلوم العسكرية Journal des sciences militaires". التي تأسست في عام 1825 م، وصدر منها حتى عام 1830 (تاريخ احتلال الجزائر) تسعة عشر (19) مجلدا، يحتوي كل منها على أكثر من 400 صفحة؛ ثم مجلة "المُشاهد العسكري Le Spectateur militaire" التي تأسست في عام 1826 م، وصدر منها حتى عام 1830 عشرة مجلدات. وكان يدير تلك المجلات العسكرية ضباط في الجيش الفرنسي لهم مستوى عال في التكوين العلمي والعسكري، وكان منهم الجنرال "غيلوم دو فودونكورGuillaume de Vaudoncourt"، الذي تولى إدارة مجلة العلوم العسكرية منذ صدور العدد الأول منها عام 1825 م، وكان آنذاك قائدا لفرقة المدفعية، وظل كذلك حتى عام 1830 م، حيث صار ضابطا متقاعدا وعضوا في الأكاديمية الملكية للعلوم العسكرية في السويد.

وكان يساهم في الكتابة في تلك المجلات باحثون عسكريون ومدنيون، متخصصون في علوم متعددة لها علاقة بالميدان العسكري: من صناعة للسلاح، وإدارة للحروب، وتنظيم لوحدات الجيش، وأنظمة قتالية، وصحة عسكرية، ورسم للخرائط، وطرق تعليم وتدريب، ومذكرات تتعلق بالحروب والأعمال العسكرية، وتعليقات على كتب متخصصة في العلوم العسكرية التي تصدر في بلدان أخرى وبلغات مختلفة، وغير ذلك من الموضوعات التي تنمي التعليم العسكري وترفع القدرة القتالية للجيش وتوضح وظائفه وتبين علاقاته بالمجتمع والدولة بشكل عام[57].

وفضلا عن نشر المؤلفات والأبحاث المتعلقة بالمعارف العسكرية، فإن المطبعة صارت تُستغل في طبع المنشورات التي توزع على الجنود والضباط الذين يشكلون الحملات العسكرية، بهدف تعريفهم بالأرض التي سيحاربون فيها، والجيش الذي سيواجهونه، والاحتياطات الصحية والأمنية التي عليهم اتخاذها، والأهداف التي سيحاربون من أجلها، وغير ذلك من الموضوعات التي تسهم في توجيه الحملات العسكرية والتحكم في إدارتها، وتساعد على تحقيق أهدافها. وهذا ما وُجد في الحملة الفرنسية على الجزائر في عام 1830 م، حيث طبع كتاب خاص يتعلق بالجزائر يُعرِّف بها من جوانب متعددة: جغرافية وتاريخية وثقافية ودينية واقتصادية وسياسية وعسكرية وبشرية، وغيرها. ودُعم ذلك الكتاب بخرائط ومعطيات إحصائية توضح تلك الموضوعات جميعها. وبلغ حجم الكتاب 237 صفحة، وسمي: (وصف تاريخي وإحصائي وطوبوغرافي للجزائر لفائدة الحملة الإفريقية)[58]. ولتوسيع دائرة الإعلام حول الحملة على الجزائر فإن ذلك الكتاب طُبع في سنة 1830 لوحدها ثلاث مرات. ويعني ذلك أن توزيعه تجاوز محيط الجيش الذي شكل الحملة، فشمل محيط المدنيين في المدن الفرنسية أيضا. وزيادة على الكتاب المذكور، فإن قيادة الحملة وزعت مطبوعات أخرى على الجنود والضباط تمثلت في قوائم بالكلمات العربية والتركية الرئيسية المستخدمة في الجزائر، ومنشورات تتضمن تعليمات مختلفة حول الإجراءات العسكرية والصحية اللازم اتخاذها أثناء القتال[59]. وليس ذلك فحسب بل إن المطبعة استُخدمت في طبع منشور وُزع على

---

[56] قدّم تلك الإحصاءات أحد رجال الدولة والأدب في فرنسا آنذاك وهو الكونت داري Comte Daru (1767 . 1829 م)، راجعها في: Lesur, Annuaire ... pour 1826, op. cit., p 266 - 267

[57] راجع أمثلة عن تلك البحوث وأصحابها في الملحق: ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

[58] Anonyme, Aperçu historique, statistique et topographique sur l'état d'Alger à l'usage de l'armée expéditionnaire d'Afrique, 2° éd., Paris, Ch. Picquet, 1830

[59] Desprez (François A.), Journal d'un officier de l'Armée d'Afrique, Paris, Chez Anselin, 1831, p 51

الجزائريين حرره مترجمو الجيش الفرنسي، وبينوا فيه أهداف الحملة الفرنسية على بلادهم، وذلك كنوع من الحرب النفسية عليهم لفصلهم عن السلطة العثمانية وإبعادهم عن المقاومة ودفعهم للاستسلام للجيش الفرنسي[60].

ونظرا إلى الخدمات الكبيرة التي تقدمها المطبعة في مجال النشر، فإنها صارت إحدى مكونات العتاد العسكري للجيوش، وذلك كان شأن الجيش الفرنسي الذي احتل مصر عام 1798 م بقيادة نابليون بونابرت[61]، وكذلك الجيش الذي احتل الجزائر بعد ذلك في عام 1830 م. وكانت تلك المطبعة أول مطبعة دخلت البلاد الجزائرية، وبواسطتها تم طبع أول صحيفة في الجزائر، وكانت على يد الجيش الفرنسي، وهي التي أطلق عليها اسم "l'Éstafettes d'Alger"، وهي صحيفة عسكرية وتاريخية وسياسية، بلغ حجمها 4 صفحات، ويحمل العدد الأول منها تاريخ 25 جوان 1830 م، وتم طبعه في معسكر "سيدي فرج" غربي مدينة الجزائر، حيث نزلت الحملة، وطبع منه ألفان (2000) من النسخ على أقل تقدير. وكان المشرف على تحرير تلك الصحيفة السيد توسان مرل Toussaint Merl الكاتب الشخصي لقائد الحملة الجنرال دوبورمون De Bourmont. وكان آخر عدد صدر من تلك الصحيفة هو الذي طبع يوم 5 جويلية 1830 م، حيث سقطت مدينة الجزائر في يد الجيش الفرنسي[62].

وإذا أتينا إلى الدولة العثمانية التي كانت تمثل العالم الإسلامي في ذلك العصر، فإننا نجد أنه في الوقت الذي كانت آلة الطباعة قد أحدثت في قارة أوروبا منذ اختراعها في عام 1452 م . كما سبق الإشارة . ثورة كبرى في عالم الكتاب الذي يعتبر أهم وسيلة لنشر المعرفة والثقافة بين أفراد المجتمع، أقول فإن الدولة العثمانية ظلت متأخرة عن استخدام ذلك الاختراع والاستفادة منه في نشر المعرفة بين أفراد مجتمعها لعشرات العقود من الزمن بعد ظهوره في أوروبا، وذلك حتى عام 1727 م حيث تم تأسيس أول دار للطباعة في إستانبول في عهد السلطان أحمد الثالث. وتقدر مدة ذلك التأخر بـ 276 سنة من ظهور ذلك الاختراع في مدينة ماينس بألمانيا. بينما لم يتجاوز ذلك التأخر بالنسبة إلى فيينا التي حاصرها العثمانيون في عام 1683 م، سوى بـ 22 سنة، إذ أن آلة الطباعة أدخلت إليها . كما سبق الإشارة . في عام 1474 م. ويعني ذلك أن العثمانيين تأخروا عن النمساويين في استخدام ذلك الاختراع بـ 254 سنة. وإذا علمنا أن ذلك التأخر قد تقلص إلى مدة 45 سنة فقط بعد حصارهم لمدينة فيينا والذي كان في عام 1683 م، فإننا نعلم الأثر الإيجابي الذي أحدثه فيهم ذلك الحصار. وأما مدينة الجزائر التي استولى عليها الفرنسيون بعد معركة أوسطه والي في عام 1830 م، فإنها لم تعرف ذلك الاختراع مطلقا حتى تمت عملية الاحتلال، وكانت أول مطبعة أدخلت إلى أراضيها هي التي استقدمها معه الجيش الفرنسي المحتل.

وحتى بعد إدخال آلة الطباعة إلى العاصمة إستانبول، فإنها لم تنتشر في المدن العثمانية الأخرى كما حدث في أوروبا، وإنما اقتصر استخدامها على إستانبول فقط. وكانت دار الطباعة الثانية التي أُسست في الدولة تلك الفترة هي التي أسسها محمد علي باشا والي مصر في مدينة بولاق قرب القاهرة عام 1822 م. ومن جهة ثانية فإن نشاط تلك المطبعة العثمانية قد ظل بعد تأسيسها عام 1727 م محدودا جدا، وبقي دون المستوى بكثير بالمقارنة بنشاط المطابع الأوروبية. فمن بداية عمل تلك المطبعة عام 1728 م، وحتى عام 1830 م حيث وقع احتلال مدينة الجزائر، وهي مدة تقدر بمائة وسنتين، فإن المطبعة لم تعمل بصورة مستمرة، وإنما توقفت لمدة 27 عاما امتدت بين سنتي 1756 و1783 م، وذلك

---

[60] راجع صورة من ذلك المنشور الذي طبع بالطريقة الحجرية، في: الشريف الزهار، مذكرات، مصدر سابق، ص 177.

[61] حول تفاصيل ذلك راجع:

Luthi (Jean-Jacques), Regards sur l'Egypte au temps de Bonaparte, Paris, Bonéoud, 1999, pp 153 J 156

[62] Fiori (Hermann), Bibliographie des ouvrages imprimés à Alger de 1830 à 1850, Blida (Algérie), Chez l'auteur, 1938, p 17-18

لأسباب تتعلق بالحروب وانشغالات الدولة الداخلية والخارجية. وبلغ عدد المؤلفات التي طبعت خلال تلك المدة كلها 98 مؤلفا فقط، بعضها يتشكل من مجلدين، وبعضها من مجلد واحد[63]. بينما طبع في فرنسا بمفردها في عام واحد وهو 1825 م ما قدره 7605 من المؤلفات، وطبع في السنة الموالية 8273 مؤلفا، وكان منها 105 مؤلفا يتعلق بالرحلات لوحدها، وهو بمفرده يفوق العدد الذي يمثل المؤلفات التي طبعت في إستانبول طوال مائة سنة كما سبق الإشارة.

2 - التقدم العلمي:

إن الثورة التي أحدثتها آلة الطباعة في عالم الكتاب في أوروبا، لم تنبع في الواقع من آلة الطباعة ذاتها، وإنما من الانقلاب الذي حدث في العقل الأوروبي الذي تحول بداية من القرن الرابع عشر الميلادي، من عقل جامد وخامل وكسول إلى عقل مفكر ومخترع ومبدع. ورافق ذلك التحول العقلي توجه ثقافي جديد في المجتمع، كانت إحدى صوره التنوع في حقول المعرفة، وارتباطها بحاجات المجتمع والدولة. ومن ثم ظهر البحث في الظواهر الطبيعية بمختلف صورها، السياسية والاقتصادية والعسكرية والأدبية والاجتماعية والكونية[64]، بغية تفسيرها وإخضاعها لإرادة الإنسان وتسخيرها في خدمته. وهكذا ظهرت في أوروبا فئة واسعة من العلماء المخترعين والمبدعين في شتى أصناف المعرفة، تُمثل بحق المستوى الثقافي والفكري العالي الذي وصل إليه المجتمع الأوروبي. وهو الوضع الذي كان يفتقده المجتمع الإسلامي آنذاك ومنه المجتمع العثماني. وللدلالة على ذلك يكفي أن نذكر أن السنة التي حاصر فيها العثمانيون مدينة فيينا، لوحدها، وهي سنة 1683 م، كان يعيش في أوروبا بشكل عام ما لا يقل عن 34 (أربعة وثلاثين) عالما في العلوم الطبيعة والرياضية لوحدها، وكان هؤلاء العلماء كلهم مخترعون ومبدعون، وسجلت لنا مصادر التاريخ اختراعاتهم وإبداعاتهم، وعليها تأسست كثير من مظاهر التقدم الحضاري التي نعيشها في العصر الحديث. ونذكر من هؤلاء العلماء العالم الإنكليزي إسحاق نيوتن (ت 1727 م)، مكتشف قانون الجاذبية الكونية، وستيفن كراي (ت 1736 م) مكتشف ظاهرة تولُّد الكهرباء بواسطة الاحتكاك، وصاحب أول تجربة لنقل الكهرباء، والعالم الفرنسي غيلوم أمونتون (ت 1705) صاحب مفهوم الصفر المطلق في درجة الحرارة، والألمانيان كبريال فخرنخ (ت 1736 م) مخترع السُّلّم الحراري ذو النقطتين الثابتتين، وأوتو فون

---

63 Ubicini (A), lettres sur la Turquie, 1ere partie, 2° éd., Paris, J. Dumaine, 1853, pp 243-249

64 يمكن أن نستخلص ذلك التنوع في المعرفة من خلال موضوعات المؤلفات التي كانت تطبع أنذاك، وهو ما تبينه دراسة أنجزت حول أصناف المؤلفات التي طبعت في شبه الجزيرة الإيبيرية بين عامي 1473 و1500 م، ثم بين عامي 1501 و1536 م، فوجد أنه في الفترة الأولى صدر (446) كتابا (أي عنوانا)، كان منها (217) كتابا (48,6 %) في اللاهوت، و(60) كتابا (13,4 %) في الآداب، و(45) كتابا (10%) في القانون، و33 كتابا (7,4 %) في الفلسفة، و(29) كتابا (7,4 %) في البلاغة والتربية، و(15) كتابا (3,3 %) في الطب، و(14) كتابا (3,1 %) في الموسيقى والجغرافيا والرياضيات. وصدر في الفترة الثانية (744) كتابا، كان منها (263) كتابا (35,3 %) في اللاهوت، و(119) كتابا (16%) في الآداب، و(63) كتابا (8,4 %) في القانون، و (83) كتابا (11,1%) في الفلسفة، و(52) كتابا (6,9 %) في التاريخ، و(85) كتابا (11,4 %) في البلاغة والتربية، و(23) كتابا (3,4 %) في الطب، و(14) كتابا (1,8 %) في الموسيقى، و(18) كتابا (2,4 %) في الجغرافيا، و(16) كتابا (2,1 %) في الرياضيات، و(8) كتب (1 %) في الشُّعر (برفع الشين والعين). (ستبيتشفيتش، تاريخ الكتاب، مصدر سابق، ص 121). وتوزعت المؤلفات المطبوعة في فرنسا عام 1826 م، والتي بلغ عددها 8273 مؤلفا، على أكثر من ثلاثين موضوعا معرفيا شملت: الدين، والقانون، والتاريخ الطبيعي، والاقتصاد الريفي، والإدارة، والتاريخ العسكري، والفنون، والصناعات، والأدب، والشعر، واللغات، وتاريخ الشعوب، والمذكرات، والكتب المهداة، والرحلات، والفلسفة، والمسرح، والرواية، والأساطير، وتاريخ الشعوب، وتاريخ فرنسا، والآثار، والاقتصاد، والتجارة، والفيزياء، والكيمياء، والطب، والتشريح، والبيطرة، والزراعة، والحيوان، والرياضيات، والفلك، وموضوعات أخرى. (راجع توزيع تلك الكتب في:

Lesur (C. L.), Annuaire historique universel pour 1830, Appendice, 1ere partie, Paris, Thoisnier – Desplaces, 1832, p 267

كيريك (ت 1686 م) الذي شرح ظاهرة الضغط الجوي وصاحب التجربة الشهيرة حول فصل أنصاف الكرات الفارغة من الهواء، والهولنديان هرمن بورهيف (ت 1738) مؤسس علم الطب الاكلينيكي، وكريستيان هوكن (ت 1695 م) مكتشف حلقة كوكب زحل والقمر التابع له، ومخترع ميزان دولاب الساعة، وواضع مفهوم القوة المركزية الطاردة، ونظرية التموج الضوئي[65].

وأما إذا أتينا إلى عام 1830 م حيث وقعت معركة أوسطه والي، فإننا نجد أوروبا قد خطت خطوات أخرى أكبر من سابقاتها في طريق التقدم العلمي، ووصلت إلى مستوى أكثر تطورا مما كانت عليه في عام 1683 م. وللدلالة على ذلك فإن فرنسا بمفردها كان يعيش فيها في تلك السنة (1830م) ستة عشر (16) عالما في علوم الطبيعة والتكنولوجيا، وكان منهم الكفيف لوي براي (1809 . 1852) مخترع الحروف الخاصة بالمكفوفين، والتي تُعرف باسمه إلى يومنا هذا، ثم أندري ماري امبير André-Marie Ampère الذي كان رياضيا وفيزيائيا وكيميائيا، وإليه يعود فضل اكتشاف القوانين المنظمة للعلاقة بين الكهرباء والمغناطيس، وباسمه صارت تعرف وحدة قياس شدة التيار الكهربائي، وهي (الأمبير)، ثم لوي باستور (1822 . 1895 م) صاحب الإنجازات الكثيرة في علم الأحياء المجهرية، وبواسطة اكتشافاته المهمة عرف علم الطب تطورا ملموسا، وبصفة خاصة في معرفة أسباب الأمراض وسبل الوقاية منها بواسطة اللقاحات، وإليه تنسب طريقة تعقيم المواد الغذائية لحمايتها من التعفن الذي تحدثه بعض أنواع البكتيرياز؛ ثم لويس داغير Louis Dagerrre (1787 . 1851 م) مخترع التصوير الفوتوغرافي، وغيرهم[66]. أما من رجال الفكر والأدب فكان يعيش آنذاك فيكتور هيغو 1802 . 1885 م)، وبالزاك (1799 . 1850 م).

3 - تأسيس المدارس العسكرية المختصة في تكوين الجيوش:

لقد انعكس ذلك التطور في المعرفة في أوروبا على العمل العسكري بشكل عام والتقنيات المتعلقة به، فاتخذ ذلك صورة علمية، وأصبحت الجيوش لها مدارس تكوين خاصة يُكوّن فيها الضباط والقادة، وتجري فيها الأبحاث العلمية التي يُعتمد عليها في تطوير القدرات العسكرية بشكل عام، من تخطيط، وإعداد للجيوش، وتدريب على القتال، وصحة عسكرية، وصناعتة للسلاح، ولوسائل النقل، وغير ذلك من مستلزمات الحروب. وكانت تلك المدارس . كما كان الحال في فرنسا . على مستويين: أحدهما تمثله المدارس التحضيرية، والثاني تمثله المدارس المتخصصة. وكانت مدارس المستوى الأول تقدم تعليما عسكريا عاما، والثانية تقدم تكوينا متخصصا[67]. وكان التكوين في تلك المدارس يقوم على دراسة علوم حديثة مختلفة: من رياضيات، وإحصاء، وفيزياء، وكيمياء، وهندسة، وجغرافيا، وطوبوغرافيا، ولغات، وتاريخ، ورسم، وخط، وكل ما يحتاجه الجندي والضابط في عمله العسكري[68]. ولما كانت المدفعية هي جوهر القوة العسكرية فإن الاهتمام في فرنسا انصب عليها أكثر من غيرها، وكانت أولى المدارس المخصصة لذلك هي التي أنشأها الملك لوي الرابع

---

[65] استخرجنا قائمة لهؤلاء العلماء بالاعتماد على:

Mémo Larousse, Encyclopédie générale visuel et thématique, Paris, Larousse, 1990, pp 849-912 .

وراجع قائمة هؤلاء العلماء ومكتشفاتهم في الجدول الملحق بهذا العمل ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

[66] راجع أسماء هؤلاء العلماء ضمن قائمة العلماء مرتبين ترتيبا ألفبائيا، وتاريخيا، في موقع الموسوعة الحرة ويكيبيديا:

Wikipédia, liste de scientiphiques par ordre alphabétique, et chronologique

[67] Sicard (F.), Histoire des institutions militaires des Français, T. 3, Paris, J. Carréard Jeune, 1834, p 415 – 417, 433 – 449

[68] Sicard, Histoire ..., op. cit., p 417, 447 - 449

عشر في عام 1679 م في مدينة دوي Douai، ثم تبعها تأسيس مدارس أخرى في مدن غيرها حتى أصبح عددها في عام 1795 م ثماني مدارس، ثم ارتفع العدد إلى اثنتي عشرة مدرسة[69].

وداخل تلك المدارس كانت تعد الدراسات العلمية ذات الموضوعات العسكرية التي تستغل في تكوين القيادات العسكرية، ورفع كفاءة الجيوش، وتحسين أنظمتها، وتطوير أسلحتها، وابتكار الوسائل القتالية الجديدة، ووضع مخططات المعارك، ومعرفة العوامل المؤثرة في القتال، وغير ذلك من المجالات الهادفة إلى تطوير القوة العسكرية للدولة. وهكذا ظهر اهتمام جديد في ميدان البحث العلمي، يسير جنبا إلى جنب مع الاهتمامات البحثية الأخرى الموجودة في الطبيعة والصناعة والاقتصاد والسياسة والأدب والتاريخ، وهو ميدان "العلوم العسكرية les sciences militaires"، وصارت تصدر بشأنه بداية من عام 1824 م . كما سبق الإشارة . مجلات متخصصة، يقوم بكتابة موضوعاتها باحثون عسكريون ومدنيون.

وإذا أتينا إلى الدولة العثمانية التي كانت تفتقد إلى البنية العلمية والتقنية، فإننا نجد أن تأسيس المدارس التي تُقدِّم التعليم العسكري المتطور مثلما كان يحدث في أوروبا، قد بدأ في عهد متأخر بالنسبة إلى دول أوروبا، وزيادة على ذلك فإنها تمت عن طريق الصدفة أكثر منها عن طريق التخطيط، وبإمكانات محدودة كثيرا، وعلى يد ضباط عسكريين أوروبيين وليسوا عثمانيين. وتمت تلك البداية على يد الضابط الفرنسي الكونت دو بونيفال (1675 . 1747 م) الذي فر من بلاده خوفا من سجنه بسبب خلافات حدثت بينه وبين البيت الملكي في فرنسا، واستقر في أول الأمر في النمسا وحارب في جيشها ضد بلاده، ثم غادرها في عام 1730 نحو إستانبول حيث اعتنق الإسلام ودخل في خدمة الدولة العثمانية ونال لقب باشا، وصار يعرف باسمه الإسلامي وهو أحمد باشا. ونظرا إلى تكوينه العسكري فإن السلطان العثماني محمود الأول (1730 . 1754 م) فتح له باب العمل في الجيش العثماني واستجاب لرغبته في إدخال إصلاحات في وحداته العسكرية لرفع قدراتها القتالية. وكان أهم مشروع نفذه ذلك الضابط الفرنسي الأصل تأسيس مدرسة عسكرية تُقدّم تعليما عسكريا متطورا على النط الأوروبي، وكان تأسيسها في عام 1735 م بمدينة أوسكودار الواقعة على الضفة الآسيوية لمضيق البوسفور قبالة إستانبول، وتخصصت تلك المدرسة في تكوين وحدة عسكرية مختصة في الرماية (خمبرجية)، وضمت ثلاث وحدات عسكرية، تتشكل كل منها من 25 ضابطا، و75 جنديا. وكان طلبة تلك المدرسة يتلقون تعليما نظريا وتطبيقيا يقوم على دراسة مختلف العلوم التي يقوم عليها القتال واستخدام السلاح، من رياضيات، وهندسة، وفيزياء، ورسم جغرافي. وكان يساعد أحمد باشا بونيفال ضباط أوروبيون استُقدموا من فرنسا وبروسيا بشكل خاص. ولكن تلك المدرسة العسكرية كانت في الواقع تعمل في ظروف سياسية واجتماعية وعسكرية وثقافية غير مواتية، ولذلك لم يكتب لها الاستمرار، وبدأت تفقد أهميتها بوفاة مؤسسها أحمد باشا بونيفال عام 1747 م، ثم ما لبثت أن أغلقت أبوابها بعد ذلك وسرّح ضباطها وجنودها أو حُوّلوا إلى مهام عسكرية أخرى[70].

ولما تكررت المحاولة الثانية في إقامة المدارس العسكرية في العاصمة العثمانية فإنها تمت في ظروف تكاد تكون مشابهة للظروف التي تمت فيها المحاولة الأولى، إذا لم تأت تلك المحاولة على يد عسكريين عثمانيين، وإنما على يد عسكريين أوروبيين، كان يتقدمهم الضابط المجري ذي الجنسية الفرنسية البارون دو توت (1733 . 1793 م) الذي استدعاه السلطان مصطفى الثالث للاستعانة به في تطوير الجيش العثماني. ومن المشاريع التي أقامها ذلك الضابط الأوروبي خلال

---

[69] Sicard, Histoire ..., op. cit., p 433 - 435

[70] مجموعة من الأساتذة بإشراف إكمال الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج 2، تعريب صالح سعداوي، إستانبول، منظمة المؤتمر الإسلامي، 1999 م، ص 504 . 505.

إقامته في العاصمة العثمانية بين سنتي 1770 . 1776 م، تأسيس مدرستين عسكريتين لتكوين الضباط والجنود المختصين في العمل العسكري على النمط الأوروبي، وكانت إحداهما مخصصة لفرقة المدفعية، والثانية للهندسة العسكرية. وبعد ذلك زاد الاهتمام بالمدارس العسكرية في الدولة العثمانية، ولكن ذلك الاهتمام لم يوسع خارج العاصمة إستانبول نحو الإيالات ومنها الجزائر التي لم تعرف مثل تلك المدارس حتى وقع احتلالها على يد الفرنسيين بعد معركة أوسطه والي عام 1830 م. وزيادة على عدم انتشار المدارس العسكرية خارج العاصمة إستانبول، فإن تلك المدارس التي أُنشئت هناك ظلت لمدة عقود من الزمن تفتقد إلى الفعّالية التي كانت تمتاز بها نظيراتها في أوروبا، فكان التدريس فيها حتى عام 1836 م لا يجري بصورة منتظمة، ويتم بطريقة تقليدية تعتمد على حفظ المتون كما في المدارس القديمة، وهي دروس كان يقدمها في معظم الأحيان مدرسون عثمانيون تنقصهم المعرفة في مجال العلوم العسكرية[71]. وكان ذلك الضعف في التكوين هو الذي جعل السلطان محمود الثاني يرسل طلابا عثمانيين من المدرسة الحربية التي أنشأها عام 1250 هـ (1834 . 1835 م)، إلى عواصم أوروبا لتعلم العلوم العسكرية، وكان من تلك العواصم مدينة فيينا عاصمة النمسا[72]، التي حاصرها العثمانيون في عام 1683 م وأرادوا فتحها كما فتحوا إستانبول من قبل، ولكنهم انهزموا أمام أسوارها هزيمة لم يعرفوا مثلها. بل أن ذلك الضعف هو الذي دفع من غير شك الباي التونسي أحمد باشا كذلك إلى الاستعانة بضابط عسكري إيطالي بدلا من ضابط عثماني،في التدريس بالمدرسة العسكرية التي أنشأها عام 1256 هـ (1840 م) في قصر باردو بتونس، وكانت لغة التعليم فيها اللغة الفرنسية، وليست التركية أو العربية. وقد قدم المؤرخ التونسي أحمد بن أبي الضياف المعاصر آنذاك، تفسيرا موضوعيا لذلك الاستخدام للغة الفرنسية، إذ أرجعه إلى المستوى المتدني الذي كانت عليه المعارف في الدولة العثمانية، فيقول: "وفي غرة محرم من سنة ست وخمسين رتب هذا الباي مكتبا حربيا [(أي مدرسة حربية)] ببارد و [...] لتعليم ما يلزم العسكر النظامي من العلوم كالحساب والهندسة والمساحة وغيرها، ولتعليم اللغة الفرنسية لأن أكثر كتبها [(أي كتب تلك العلوم)] مدوّنة بهذه اللغة"[73].

وقد انعكس التقدم العلمي الذي حدث في المجتمع الأوروبي، والتعليم العسكري المتطور الذي كان يتم في المدارس الحربية بالقارة، على العسكرية الأوروبية بصورة عامة، وأدى إلى تفوقها بصورة بارزة على العسكرية العثمانية، وظهر ذلك التفوق واضحا إبان الحملة العسكرية الفرنسية على الجزائر عام 1830 م. وكان ذلك التفوق هو الذي أدى إلى هزيمة الجزائريين في معركة أوسطه والي يوم 19 جوان من تلك السنة، وانفتاح الطريق أمام الفرنسيين بعد ذلك نحو مدينة الجزائر، فتم احتلالهم لها يوم 5 جويلية من السنة المذكورة. وقد انهزم الجزائريون في تلك المعركة مع أن التقارير الفرنسية تذكر بوضوح أنهم قاتلوا بدرجة عالية من الشجاعة، وأبدوا مهارات قتالية عالية، وبذلوا كل ما في وسعهم لصد الحملة ومنعها من احتلال مدينتهم[74]، ولكن كانت تنقصهم المعرفة القتالية، والتكنولوجية العسكرية، وهما العاملان اللذان كان عدوُّهم الفرنسي متفوقا عليهم فيهما. ولبيان ذلك التفوق يكفي النظر إلى طرق إعداد الحملة، وإلى

---

[71] مجموعة من الأساتذة، الدولة العثمانية ...، مصدر سابق، ص 520.

[72] مجموعة من الأساتذة، الدولة العثمانية ...، مصدر سابق، ص 520.

[73] ابن أبي الضياف (أحمد)، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الباب السادس، تحقيق أحمد عبد السلام، تونس، منشورات الجامعة التونسية، 1971، ص 70.

[74] راجع تلك الشهادات في:

Ault-Dumensil, De l'expédition ..., op. cit., p 56; Nettement, histoire de la conquête ..., op. cit., p 377-378, 385-386 ; Rozet, Relation de la guerre..., op. cit., p 146, 163 - 164 ; Saint-Denys, Considérations ..., op. cit., pp 172, 174.

مكوناتها، وأسلحتها، وطرق القتال التي استخدمها قادتها في المعركة. وهي كلها مظاهر لم يكن يوجد ما يقابلها لدى الطرف الجزائري كما نبين ذلك في العناصر الموالية.

4 - توظيف التاريخ العسكري في الحروب:

فبخصوص طرق إعداد الحملة فإنه يكفي الإشارة إلى قيام قادة الحملة بتوظيف التاريخ العسكري الذي كان، ولايزال إلى اليوم، يُشكّل أحد مواد التعليم الأساسية في المدارس العسكرية، وتم ذلك التوظيف بدراسة تاريخ الجزائر العسكري لمعرفة تجاربها التاريخية مع الحملات التي شُنت عليها من قبل الدول الأوروبية طوال العهد العثماني بهدف احتلالها، لمعرفة أسباب فشل تلك الحملات، وتجنب الأخطاء التي وقع فيها قادتها، والاطلاع على الصعوبات والتحديات التي واجهتهم في ميدان المعركة أثناء المواجهة مع الجزائريين، وذلك كله من أجل رفع القدرة القتالية للحملة الفرنسية وضمان نجاحها في تحقيق هدفها باحتلال مدينة الجزائر. ومن أهم الحملات التي درسها ضباط الحملة الفرنسة الحملتان الإسبانيتان الشهيرتان، الأولى لعام 1541 م، وهي التي قادها الملك شارلكان (شارل الخامس)، والثانية لعام 1773 م، وهي التي قادها الأميرال أوريي، وكلاهما صدهما الجزائريون ومنعوهما من تحقيق هدفهما باحتلال الجزائر. ولمعرفة تفاصيل الوقائع التي أحاطت بالحملتين المذكورتين فإن الكونت دو بورمون ما إن أُبلغ بتعيينه قائدا للحملة حتى طَلَبَ من الملك الفرنسي أن يرسل الأمر إلى سفيره في مادريد (عاصمة إسبانيا) للبحث في الأرشيف الإسباني بالأسكوريال، عن الوثائق المتعلقة بالحملتين المذكورتين وجمع المعلومات المتعلقة بهما، لأن فشلهما في تحقيق هدفهما لم يكن، حسب نظره، بسبب الصعوبات الطبيعية كما روج لذلك الإسبان، وإنما بسبب أخطاء بشرية وقع فيها الضباط الذين تولوا قيادة الحملتين[75]. ولكن توظيف التاريخ العسكري في الحملة الفرنسية لم يقتصر في الواقع على دراسة تجارب الحملات الأوروبية على الجزائر فقط، وإنما تجاوز ذلك إلى استخدامه في الإعلام العسكري الذي يهدف إلى تعريف الضباط والجنود وكل رجال الحملة الفرنسية، بالجزائر من مختلف الجوانب: الجغرافية والتاريخية والسياسية والدينية والعسكرية والثقافية والاقتصادية والسكانية. وتم ذلك من خلال إعداد الكتاب الذي سمي (وصف تاريخي وإحصائي وطوبوغرافي للجزائر لفائدة الحملة الإفريقية)[76]، وقد سبق الإشارة إليه. وجرّ ذلك الميل إلى دراسة التاريخ العسكري في المدارس العسكرية الفرنسية، ضباط الجيش الفرنسي بعد الاحتلال إلى الاهتمام بتاريخ الجزائر اهتماما كبيرا، وبلغ ما حرروه من مؤلفات مختلفة الأحجام، وأبحاث نشروها في مجلات مختصة أسسوها لذلك الغرض، مثل المجلة الإفريقية، مستوى جعل تلك الكتابة تشكل ظاهرة بارزة في الكتابة التاريخية في الجزائر أثناء الاحتلال، حتى أن الدكتور أبو القاسم سعد الله أطلق على العهد الذي شملته تلك الكتابة وهو من 1830 إلى 1889 م، عهد المؤرخين العسكريين[77].

5 - تعدد الفرق العسكرية المختصة في الجيوش:

---

[75] Merle (J.T.), Anécdotes historiques et politiques pour servir à l'histoire de la conquête d'Alger en 1830, Paris, G.A/, Denteu, 1831, pp 12-13

[76] Anonyme, Aperçu historique ..., op. cit. .

والحملة الإفريقية هنا يقصد بها الحملة التي أُرسلت لاحتلال الجزائر في عام 1830 م.

[77] سعد الله (أبو القاسم)، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، القسم الأول، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1401 هـ / 1981 م، ص 19 وما بعدها.

وأما مُكوّنات الحملة الفرنسية فمن الناحية البشرية فإنها كانت تتشكل من فرق عسكرية وشبه عسكرية متعددة التخصص بقدر ما يمكنها أن تحقق هدفها، وكثير من تلك الفرق لم يكن يوجد ما يماثلها في الجيش الجزائري العثماني، لأن استحداثها في الجيش الفرنسي كان نتيجة للتقدم الذي حدث في العلوم العسكرية في أوروبا بشكل عام. ونحن هنا لا نستطيع أن نتحدث عن تلك الفرق جميعا، إذ هو موضوع من اختصاص الباحثين العسكريين، وإنما نتحدث عن فرقة واحدة فقط كان عملها يمثل أحد مظاهر التقدم عند المسلمين في القديم، ولكن ذلك التقدم انتقل من بعدهم إلى الأوروبيين، وهي الفرقة الطبية التي كانت تتشكل من 266 شخص، بين أطباء وجراحين وصيادلة[78]، ذلك دون حساب اليد المساعدة. وكانت تلك الهيئة تعكس من غير شك في تكوينها العلمي وحرفيتها الميدانية، المستوى العالي للمعرفة الطبية التي وصل إليها المجتمع الأوروبي بشكل عام آنذاك، ومنه المجتمع الفرنسي، بفضل تطور دراسة ذلك النوع من العلوم في مؤسسات التعليم المختصة. ويكفي أن نذكر هنا السيد "كاسبار رو Gaspard Roux" (1780 . 1839 م) الذي عُين قائدا عاما لهذه الفرقة، إذ كان أحد أنجب الطلبة في مدرسة الطب في باريس، وفيها حصل على درجة الدكتوراه في عام 1802 م، برسالة بحثية حول مرض الحصبة بلغ حجمها 211 صفحة، ونشرها في عام 1807 م. وبعد ذلك بدأ السيد "كاسبار رو" عمله في المستشفيات العسكرية الفرنسية، إلى جانب متابعته لدراسته التخصصية، حتى صار أحد كبار أساتذة الطب في مستشفيات الجيش الفرنسي، وشارك في حملات عسكرية كثيرة في عهد نابليون، وأخيرا في حملة الجزائر عام 1830 م. وإلى جانب العمل الطبي فإن السيد "كاسبار رو" اشتغل بالبحث والتأليف أيضا، ومن أهم الدراسات التي أنجزها زيادة عن رسالته للدكتوراه المذكورة، واحدة حول الحُمَّيات الوهنية، استخلص معلوماتها من الملاحظات الميدانية التي أجراها في المستشفيات العسكرية، ونشرها في عام 1813 م، وبلغ حجمها 498 صفحة؛ ثم دراسة ثانية حول تاريخ الطب العسكري للجيش الفرنسي أثناء حملة اليونان عام 1928، ونشرها في عام 1829 م وحجمها 175 صفحة[79].

أما الجيش العثماني الجزائري الذي كان هو الآخر يعكس مستوى "التقدم" الذي كان عليه المجتمع الذي ينتمي إليه، فإن الطب العسكري لديه كان شبه معدوم إن لم نقل معدوما بالفعل. فتذكر الكتابات الفرنسية التي أرّخت للحملة أن الجيش الجزائري لم يكن يتوفر على أي طبيب بالمعايير العلمية إلا واحد من أصل ألماني هو السيد "سيمون بفايفر" الذي كان أسيرا في الجزائر آنذاك منذ عام 1825 م[80]. ولأجل ذلك فإن الجرحى الذين كانوا يسقطون في المعارك، ومنهم جرحى المواجهات مع الفرنسيين في معركة "أوسطه والي" وفي المناوشات التي تلتها، كانوا يُعالَجُون بطرق تقليدية لا تمت بأية صلة لعلم الطب، وكان يقوم بذلك العلاج، كما سُجّل ذلك في مشاهدات ضُبّاط الحملة، الحلاّقون وبعض الأشخاص المغامرون الذين يَزجُّون بأنفسهم في ذلك العمل دون دراية بأصول علم الطب. وكان كثير من هؤلاء الجرحى يصاب بالتهاب الغرغرينة الذي يؤدي إلى الوفاة[81]. وقد وصفت لنا المصادر المحلية أيضا بعض العمليات الجراحية التي كانت

---

[78] راجع قائمتهم في:

Perrot (A. M), La Conquête d'Alger ou relation de la Compagne d'Afrique, Paris, H. Langlois Fils, 1830, pp 65 - 67

[79] حول حياة هذا الطبيب الضابط: راجع:

Auger (M. j), Notice sur M. Gaspard Roux, dans : Bulletin de la Société d'Emulation du département d'Allier, Moulin, C. Desrosiers, T. 11/1870, pp 211 – 227.

[80] Nettement (A. F), Histoire de la conquête d'Alger, Paris, Jacques Le Cooffre, 1956, pp 317 - 363

[81] حول الممارسات الطبية في الجزائر في ذلك العهد راجع:

تُجرى لجرحى المعارك على يد مثل هؤلاء الأشخاص، وكانوا من أهل الحرف، ومنهم الحدادون، ونقصد بذلك ما ذكره ابن زَرَفَة أثناء تأريخه لأحداث فتح وهران عام 1205 هـ (1791 م)، حيث أصيب أحد الطلبة المشاركين في المعركة، وهو سي بوتمرة، ببُنْدُقة (أي برصاصة) في رأسه. فيقول ابن زَرَفَة واصفا الطريقة التي عولج بها ذلك المصاب: "فأتاه بعض الحدادين ممن لم تصحبه عناية المالك القاهر، فلما رأى تلك البُندُقة ثابتة في خلال عظم رأسه أشار عليهم بنزعها ليستريح [المصاب] من ضرر ذلك وبأسه [...] ثم ذهب وأتى ببرّيمة، فجعلها في فم الكُلَّبتين وأنشأ يَبْرِم تلك الرصاصة حتى ثبتت فيها، وصار يجذب بقوة اليمين [(أي بقوة يده اليمنى)] وآخر قُبالته يجذب رأس المصاب إليه باليدين حتى انكسرت البريمة، فذهب وصنعها، وجاء يسعى إليه كأنما غريمه، ثم برأها في الرصاصة حتى إذا ثبتت كل الثبوت جذبها بقوة، فنزعها مع ما اتصل بها من العظم وتركه يموت. تُقسم بأنشد اليمين أنه قطع منه عرق الوتين، فلم يتكلم من حينه بعد أن كان يُقْبل ويُدبِر حتى استُشهد رحمه الله تعلى [...] وقد كُنت سألتُ عنه رحمه الله عشية الخميس [قبل العملية الجراحية المذكورة] فقبل لي إنه يخرج لقضاء الحاجة كالعادة، وبالغد نُعيت موته وقد التحق بذوي السعادة". وقد تأثر ابن زرفة لتلك الطريقة الهمجية التي عولج بها ذلك الجندي تأثرا شديدا، وعبّر عن أسفه لِما وصل إليه علم الطب عند المسلمين في ذلك العصر، بعدما كانوا فيه أسيادا يعلمون العالم، فقال: "فانظر أيّدك الله ما أجسر هذا الظلوم وما أشد اعتدائه على حدود الحي القيوم، إذ الطب علم من العلوم، بل قالوا علم الأبدان مقدم على علم الأديان"[82].

6 - استخدام السفن البخارية في الأساطيل البحرية:

إذا أتينا إلى مكونات الحملة الفرنسية من الناحية المادية، من وسائل نقل، وأسلحة، وعتاد متنوع، فإن أول ما يستقطب انتباه الباحث في الموضوع هو وجود سفن بخارية ضمن القسم الحربي من الأسطول، وعددها سبع سفن[83]. وشاركت بعض تلك السفن البخارية بفعالية إلى جانب مدفعية الميدان، في قصف تجمعات الجزائريين الذي قدموا لمواجهة الحملة[84]. ويبدو ذلك العدد من السفن البخارية الذي كانت تتشكل منه الحملة الفرنسية، صغيرا بالمقارنة مع باقي السفن الحربية التي كانت تسير بالأشرعة وعددها مائة (100) سفينة، إلا أن أهميته كبيرة جدا بالنظر إلى الرمزية التي يُعبِّر عنها ذلك العدد والمتمثلة في مستوى التقدم الذي وصلت إليه الصناعة البحرية في أوروبا بفضل الاكتشافات العلمية التي صارت تتحقق آنذاك على أيدي العلماء في مختلف الميادين وتجد طريقها إلى التطبيق في الحياة، ومن ذلك ميدان التكنولوجيا التي يقوم جانب كبير منها على الحركة الآلية، إذ بدأ التخلي عن طاقة الهواء والعضلات في حركة الآلات بشكل عام (مثل آلات الطباعة واستخراج المياه والفلاحة، والعربات، والسفن وغيرها)، واستخدام طاقة جديدة بدلا منها هي طاقة البخار. ولبيان مستوى التقدم الذي وصلت إليه فرنسا في استخدام البخار في الحركة الآلية فإن أسطولها التجاري كان يضم في عام 1828 م إحدى وسبعين (71) سفينة بخارية مخصصة لنقل البضائع والمسافرين عبر

Rozet (M), Voyage dans la Régence d'Alger, T. 2, Paris, Arthur Bertrand, 1833, pp 312 – 315. وكذلك: Shaw (Tomas), Voyage dans la Régence d'Alger, tr. De l'anglais par J. Mac Carthy, 2) éd., Tunis, Bouslama, 1980, pp 80-87

[82] حول هذه الحادثة والمقارنة بينها وبين طرق العلاج التي كانت مستخدمة في أوروبا في العصور الوسطى راجع: حماش (خليفة)، دور الطلبة الجزائريين في تحرير مدينة وهران من الاحتلال الإسباني عامي 1118 هـ (1706 . 1707 م)، و1205 هـ (1791 م)، في: مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ع 9 ، سنة 1422 هـ / 2001 م، ص 204 . 222.

[83] Ault-Dumensil, (E. d'), De l'expédition d'Afrique en 1830, Paris, l'Editeur, 1832, p 22.

[84] Rozet, Relation de la guerre ... op. cit., pp 151

البحار والأنهار[85]، أما السفن الحربية البخارية فبلغ عددها تسع (9) سفن في عام 1829 م[86]. وكما غيرت قوة البخار مجرى الملاحة البحرية فإنها غيرت مجرى الصناعة أيضا، إذ يكفي أن نذكر هنا أن فرنسا صار بها في عام 1851 م، أكثر من خمسة آلاف وخمسمائة (وبالتحديد 5607) ورشة صناعية تَستخدِم كلها آلات البخار. أما في ميدان السكك الحديدية فصار لها في السنة نفسها أكثر من سبعمائة (وبالتحديد 727) قاطرة بخارية، تغطي شبكة من المواصلات بلغت مسافتها أكثر من ألفين ومائة (وبالتحديد 2171) كيلومترا[87].

أما في العالم العثماني آنذاك، فإننا إذا تحدثنا عن الجزائر فإن حالة السفن البخارية بالنسبة إليها كانت مثلها مثل حالة آلة الطباعة، فكلاهما لم تعرفهما الجزائر إلا مع الحملة الفرنسية في عام 1830 م. أما الدولة العثمانية التي بيّنت معركة نفارين البحرية يوم 20 أكتوبر 1827 م ضعفها بجلاء كبير في كل الميادين، فإن أول سفينة بخارية استخدمت فيها كانت في عام 1828، وقد ابتاعها السلطان محمود الثاني من أنكليترا[88]. وارتفع ذلك العدد في سنة 1830 م إلى سفينتين[89]. ونظرا إلى الطبيعة التكنولوجية المتطورة والغير المألوفة لتلك السفن بالنسبة إلى العثمانيين آنذاك، فإن قيادتها أُسندت كما حدث في السفينة الأولى إلى مهندسين إنكليز، ولما أختير جنديان من البحرية العثمانية لتعليمهما قيادة السفينة وإطلاعهما على طريقة عمل محركها، فإن المهندسين الأنكليز- كما يروي شاهد عيان- وجدوا صعوبة كبيرة في ذلك بسبب جهل الجنديين العثمانيين المذكورين لقواعد الفيزياء، فضلا عن عدم إبداء رغبتهما في التعلم واعتقادهما أن السفينة تحركها طاقة شيطانية يصعب عليهما فهمها. ولذلك فطوال الثلاثة أشهر التي بقيها الجنديان العثمانيان المذكوران على متن السفينة بغرض التعلم، فإنهما لم ينزلا برفقة المهندسين الإنكليز إلى غرفة المحرك سوى مرتين[90]. ويُبين ذلك كله مستوى التخلف الذي كانت عليه الدولة العثمانية في مجال العلوم والتقنية، وجمود العقل الجمعي العثماني وعجزه عن التفكير.

مع العلم أن تطور البحرية العسكرية في أوروبا لم يقتصر في هذا العصر على استخدام محركات البخار فقط وإنما مس جوانب أخرى شملت الشكل والهيكل والتوجيه والمناورة وغير ذلك. وكان بعض تلك الجوانب قد تم إنجازه واستخدم في الأسطول الذي تشكلت منه الحملة الفرنسية على الجزائر عام 1830 م، وبعضها الآخر بدأ التفكير فيه وتقديم الدراسات حوله ليتم إنجازه في العقود الموالية، ومن ذلك استخدام معدن الحديد في بناء هياكل السفن بدلا من الخشب، وذلك لما للحديد من قدرة على مقاومة الحريق، وضربات القذائف المدفعية، وعوامل الطبيعة، علاوة على طول المدة التي يدومها، والصفة الاقتصادية التي يتوفر عليها، ووفرته في الطبيعة، وهي خصائص لا تتوفر عليها مادة الخشب. وكانت إحدى الدراسات التي أنجزت حول ذلك هي التي نُشرت في مجلة العلوم العسكرية الفرنسية في عددها الأول لعام 1825 م، أي قبل احتلال الجزائر بخمس سنوات[91].

---

[85] Tourasse et Mellet (F. N), Essai sur les bateaux à vapeur appliqués à la navigation intérieure et maritime de l'Europe, Paris, Chez Malher, 1829, p 9

[86] Tourasse, et Mellet, Essai sur les bateaux ..., op. cit., p 14

[87] Fouquier (A), Annuaire historique universel pour 1852, Paris, Thoisnier Desplaces, 1854 , p 164

[88] Mac-Farlan, Constantinople et la Turquie en 1828, tr. De l'Anglais par MM. Nettement, Paris, Moutardier, 1829, pp 225 - 226

[89] Dictionnaire Géographique universel, T. 10, Paris, 1833, p 231

[90] Mac-Farlan, Constantinople et la Turquie ..., op. cit., pp 226 - 227

[91] Montgery (M. De), Mémoire sur les navires en fer, dans : Journal des science militaire des armées de terre et de mer, Paris, Bureau du journal, T. 1/1825, pp 488 - 507

7 - استخدام الأسلحة المتطورة (المدافع الميدانية المتحركة):

أما في مجال السِّلاح والعتاد فإنّ الحَملة الفرنسية ميّزتها مكونات كثيرة كان أهمها التنوع. وذلك أمر يتمشى وتطور علم الحرب في أوروبا. ذلك أن الحرب بطبيعتها هي مجموعة مختلفة من العمليات القتالية والإمدادية والاستخباراتية، ولكنها تتميز بأنها تشترك في هدف واحد هو تدمير العدو وإخضاعه لإرادة المنتصر. وبسبب حالة الاختلاف بينها فإن تلك العمليات لا يمكن بأي حال من الأحول أن تنفذ بسلاح واحد أو آلة إمداد أو وسيلة واحدة، وإنما بأسلحة وآلات ووسائل مختلفة تتناسب وذلك الاختلاف في العمليات، ومن ثم جاء تنوع الأسلحة وآلات الإمداد ووسائلهما. وهذه الفكرة هي في الواقع قديمة بقدم الحروب، ولكنها صارت أكثر تطورا في أوروبا في الفترة الحديثة بفضل التقدم الذي حدث في الفكر العسكري الذي صار علما قائما بذاته، له أدوات فهم وبحث خاصة، وأساتذة متفرغون قائمون عليه، ومدارس يُدرس فيها، وصناعة موجهة إليه. ومن ثم جاء التنوع الكبير في الأسلحة والعتاد الذي زوّد به الفرنسيون حملتهم العسكرية على الجزائر، كما تبين ذلك القوائم التي أعدت بتلك التجهيزات وجاء ذكرها في المصادر التي أرخت للحملة[92]. ومما امتاز به ذلك السلاح والعتاد أيضا، علاوة على التنوع، هو الحداثة، حتى أن بعض الأسلحة لم تكن فقط ذات تفوق على نظيراتها الموجودة لدى الجزائريين، وإنما لم تكن معروفة لديهم أيضا. ومن ذلك المدفعية الميدانية التي اتخذت منعرجا كبيرا في التطور في أوروبا بعد حرب السبع سنوات التي اندلعت في القارة عام 1756 م بين إنكليترا وبروسيا من جهة، وفرنسا والنمسا وروسيا والسويد من جهة ثانية. ولكي يستطيع ملك بروسيا فريديريك الثاني مواجهة خصومه الأوروبيين فإنه رأى أن أمامه وسيلة واحدة فقط عليه القيام بها، وهي رفع القدرة القتالية لدى قواته العسكرية، ويكون ذلك بزيادة سرعتها في الحركة والمناورة أمام خصومه في ميادين القتال. ولكي يحقق ذلك فإن أهم عمل قام به هو بناء مدفعية جديدة غير المدفعية القديمة، فتكون خفيفة وليست ثقيلة، ومتحركة وليست ثابتة، بحيث لا تعيق حركته السريعة على رأس الجيش، وتسمح له بالتوجه لمحاربة أعدائه على مسافات بعيدة قبل وصولهم إلى أراضيه، وملاحقتهم بعد الهزيمة. وقد نجح فريديريك الثاني في مشروعه نجاحا باهرا، وحقق أهدافه في الحرب بأريحية كبيرة. وبعد نهاية الحرب أدرك الأوروبيون سر انتصار بروسيا عليهم، وتوجهوا كلهم لتطوير سلاح مدفعيتهم على النط البروسي (الألماني). ومن ذلك الحين عرف سلاح المدفعية في أوروبا تطورا كبيرا، وصارت المدفعية المثالية التي تسعى كل دولة إلى امتلاكها هي المدفعية الأخف وزنا والأسرع حركة والأقوى في تدمير العدو[93]. ومن هنا اخترعت المدفعية الميدانية الحديثة التي صارت تُثبّت فوق العربات ذات العجلات، وتجرها الخيول، ويمكن نقلها من مكان إلى آخر عبر السهول والهضاب وحتى الجبال والوديان، ومختلف التضاريس، وتوجيه فوهاتها حسبما تتطلبه ظروف القتال في المعركة، ويعني ذلك أن حركتها في الميدان تكون مرافقة لحركة الجيش الذي يستخدمها، فإذا تقدم فإنها تتقدم معه، وإذا تراجع فإنها تتراجع معه أيضا، وكذلك إذا قام بمناورة معيّنة، فإنه يحركها وينقلها من مكان إلى آخر ويُغيّر اتجاه فوهاتها ويضبط زاوية رميها حسبما تقتضيه المناورة والهدف المحدد قصفه بها. وكان هذا حال المدفعية التي صار يستخدمها الفرنسيون وزودوا بها حملتهم على الجزائر، وكان عددها اثنين وثمانين (82) مدفعا، وكانت ذات أعيرة مختلفة، وترمي قذائف متفجرة ذات أحجام متعددة، وزيادة

---

[92] هناك مصادر كثيرة سجلت بها مكونات الحملة الفرنسية، ومنها:

Pérrot (A. M.), La conquête d'Alger, Paris, H. Langlois, 1830, pp 42 – 67 ؛Desprez, Journal ..., op. cit., 307 - 320

[93] راجع بخصوص ذلك التجربة الفرنسية في:

Allix (J.A.F), Système d'artillerie de campagne du lieutenant – Général Allix, paris, Anselin et pachard, 1827, pp 8 et suiv.

على ذلك فهي ترمي على مسافات بعيدة تصل إلى 1500 م[94]. وعُين لتلك المدافع فرقة من الجنود تتشكل من نحو 2500 رجل مختصين في تركيبها ونقلها وحمل معداتها واستخدامها. أما القذائف التي ترمي بها تلك المدافع فبلغَ عددُها (64400) قذيفة متنوعة ومختلفة الأحجام. وعين لجر العربات التي تحمل تلك المدافع والقذائف وسائر المعدات (1302) حيوان بين أحصنة وبغال[95].

أما المدافع التي كان يستخدمها الجزائريون، فكانت على العكس من المدافع الفرنسية تماما، فكانت على شكل المدافع القديمة التي كانت مستخدمة في أوروبا قبل حرب السبع سنوات (1756 . 1763 م). فكانت مخصصة للحصون أكثر منها لميادين القتال. فكانت ثقيلة، وثابتة، أو شبه ثابتة، إذ توضع في الغالب على أسِرّة غير متحركة تبنى بالحجارة أو تصنع من الخشب، وزيادة على ذلك فإن كثيرا منها كان قديما جدا، وصار بمرور السنين مع غياب العناية، غير صالح للاستعمال. ومما كان يعيق حركة تلك المدافع أكثر هي التضاريس الصعبة، من هضاب وأودية وجبال، فضلا عن عدم وجود الطرق المستوية التي تسهل عملية النقل. ولذلك فإن تلك المدافع كانت تلازم الجيش مادام موجودا بجوارها، أما إذا تقدَّم أو تراجع أو قام بمناورة مُعينة فإنه يتركها بعيدة عنه، فضلا عن عدم التحكم في توجيه فوهاتها تحكما دقيقا. وكل ذلك كان يحد فعالية من استخدامها، وينقص من قوتها القتالية، ويجعلها غنيمة سهلة بيد العدو عند تراجع الجيش عنها. وقد سجلت المصادر الفرنسية المعاصرة للحملة حالة تلك المدفعية، ومنها الكِتاب الإعلامي الذي وزع على الجنود الفرنسيين، فذكر بأن "حضيرة المدفعية الميدانية الجزائرية كان بها نحو أربعين مدفعا، ولكن نصفها غير صالح للاستخدام، ووُضِع نحو خمسة عشر منها على أسرة إسبانية قديمة، ضخمة وثقيلة جدا، وعلاوة على ذلك فهي مستغلة بطريقة سيئة ومستعملة بصورة غير جيدة. والجزائريون يكادون لا يستخدمون المدافع الميدانية في معاركهم، وأكبر عائق لهم في ذلك التضاريس الصعبة وغياب الطرق المستوية"[96]. ثم ما ذكره جيشيرو دو سان دوني عن المدافع التي وجدها الفرنسيون مقامة في قلعة شبه جزيرة سيدي فرج لما نزلوا بها يوم 14 جوان، فقال بأن الوثائق الرسمية الفرنسية أشارات إلى العثور على أربعة مدافع صغيرة مصنوعة من الحديد وُجدت هناك، و"كانت تلك المدافع ذات عيار 3 و 6 أرطال. وتعود بتاريخها إلى عهد خير الدين بربا روسا (ق 16 م)، وظلت منذ ذلك العهد عرضة للهواء المشبع بالبخار المالح الآتي من البحر والمضر بها. فكانت مغطاة من الداخل والخارج بطبقات سميكة من الحديد، تتساقط منها أو تتحول إلى تراب عند أخف ضغط عليها. وكانت أَسِرّتها قد تَلَفَت منذ مدة طويلة، ولم يَجْرِ تجديدُها"[97]. وذلك الوضع الضعيف الذي كانت عليه المدفعية الجزائرية الموجهة لحرب الميدان خارج مدينة الجزائر، قد عبر عنه أحمد الشريف الزهار نفسه لما تحدث عن برج مولاي حسن الذي يعتبر واحدا من أكبر الحصون المهيأة للدفاع عن مدينة الجزائر، فقال: "فاتفقوا على تعمير برج مولاي الحسن، وكانوا قد بعثوا بي لأُجرِّد لهم ما فيه من المدافع وآلة الحرب، فذهبتُ، ووجدت به عشرة مدافع صغيرة، ونحو القنطارين من البارود، وما يقرب من المائتي كورة، فأتيتهم بالجريدة واطَّلَعُوا عَلَيْها"[98].

---

[94] راجع أنواع تلك المدافع في: Carnot (M), De la défence des places fortes, Paris, M. Coursier, 1912, p 533

[95] Rozet (M), Relation de la guerre d'Afrique pendant les années 1830 – 1831, T. 1, Paris, 1832, pp 17, 25

[96] Anonyme, Aperçu historique ..., oP. cit., p 232

[97] Saint Denys, Considérations statistiques, historiques, militaires et politiques sur la régence d'Alger, Paris, Delaunay, 1931, p 170

[98] الزهار، مذكرات، مصدر سابق، ص 173.

وكما وصفت المصادر الفرنسية حالة المدفعية الميدانية الجزائرية، فإنها وصفت تفوق نظيرتها الفرنسية عليها أيضا، ومن ذلك ما ذكره الضابط فرنسوا ديبري F. Desprez، فقال: "إن مدافعنا المتحركة والحديثة الطراز قد أعطتنا تفوقا كبيرا على العدو، وفاجأته في كل العمليات العسكرية التي واكبت الحملة، إذ لم يكن لديه (أي للعدو) ما يواجهنا به سوى المدفعية الثابتةartillerie de position"[99]. ويقول في موضع آخر: "إن المدفعية [الفرنسية] على الرغم من صعوبة المنحدرات والوديان التي كانت تعترض طريقها، فإنها كانت تسير مرافقة للمشاة، وتتقدّمهم أمامهم في بعض الحالات. والقذائف التي رميت بدقة كبيرة على النقاط التي كان يتجمع فيها العدو بأعداد كبيرة، قد ألحقت به أضرارا كبيرة وسببت له الرعب. وإن المدفعية الجزائرية كانت ترمي من غير توجيه سليم ولم تكن لها أية فعالية. ومع أنه كان يشرف عليها رجال مهرة، إلا أن نيرانها لم تكن تحدث أي تأثير على وحدات جيشنا"[100].

8 - استخدام البنادق ذات الحراب:

زيادة على المدفعية فإن هناك أسلحة ومعدات أخرى جهز بها الفرنسيون حملتهم، ولم يكن الجزائريون يملكونها، وهي تشهد على تطور الصناعت الحربية والمعارف القتالية لدي الفرنسيين على وجه الخصوص والأوروبيين على وجه العموم. ومن ذلك البندقية المزودة بالحربة التي يعبر عنها الفرنسيون باسم baillonette، وهي لا تزال مستخدمة في أسلحة العصر الحديث. وتنسبها الكتابات الفرنسية في العادة إلى المدينة التي يقال بأنها اخترعت فيها وهي مدينة (بايون Bayonne)[101]، ولكن هناك من الفرنسيين من يفند ذلك الادعاء ويقول بأن اسمها مقتبس من الكلمة الإسبانية bayneta (بمعنى: غمد، أو سكين ذو غمد)[102]. وصارت الحربة تُثبَّت في نهاية البندقية لتستخدم في القتال في المعارك للدفاع والهجوم معا. وبدأ ذلك الاستخدام بشكل رسمي وعام في الجيش الفرنسي بداية من عام 1703 م. ولكن استخدام الحربة لم يبق مقتصرا على الجيش الفرنسي فقط وإنما عم مختلف الجيوش في دول أوروبا، حيث صارت تعرف في لغات تلك الدول بأسماء متشابهة، وصارت لها أشكال ومقاييس مختلفة، حتى صار لدينا حربة فرنسية، وأخرى ألمانية، وثالثة إنكليزية، ورابعة سويدية، أو هولندية، أو روسية، أو غير ذلك[103]. ولكي تؤدي الحربة دورها الفعال في المعارك فإنها صارت لها تدريبات خاصة يتعلّم الجنود من خلالها كيفية استخدامها، وتُسمى التدريب على استخدام الحربة (escrime à la baïonnette)[104]. وقد غنم العثمانيون بعض البنادق المجهزة بالحربة في حربهم ضد روسيا في عام

---

[99] Desprez, Journal ..., op. cit., p 78

[100] Desprez, Journal ..., op. cit., p 105

[101] Chéruel (A), dictionnaire historique des institutions, mœurs et coutumes de la France, 1ere partie, Paris, Hachette, 1855, p 59

[102] Marin (Henri), Histoire de France depuis les temps les plus reculés jusqu' en 1789, vol. 13, paris, Furne, 1865, p 15

[103] Tackels (C. J),Etude sur les armes à feu portatives, Bruxelles, Ch. Muquardt, 1866, pp 15-16. ورجع أيضا: Encyclopédie du dix – neuvième siècle, T. 5, Paris, Bureau de l'Encyclopédie, 1843, p 36-37

[104] راجع:

Le Spectateur militaire, Paris, Mareschal, T. 4, 1828, pp 61- 67; Chapitre (F), Gymnastique militaire, escrime à la baïonnette, 6° éd., Bruxelles, E. Renier, 1856

1185 هـ (1771 م)[105]، ولكن مع ذلك لم يدخلوها في سلاحهم. وعلى الرغم من أن الضابط المجري ذي الجنسية الفرنسية البارون دو توت (1733 . 1793 م) الذي استدعاه السلطان مصطفى الثالث للاستعانة به في تطوير الجيش العثماني بين سنتي 1770 . 1776 م كما سبق أن بينا أعلاه، قد أدخل البندقية ذات الحربة في سلاح بعض الفرق التي أشرف على تدريبها في إستانبول، إلا أن العثمانيين لم يقتنعوا بها، ومن ثم لم يقوموا بتعميمها على فرقهم العسكرية الأخرى، وزيادة على ذلك فإنهم تخلّوا عنها بعد توقف البارون دو توت عن أداء مهمته العسكرية وعودته إلى بلاده في عام 1776 م، مع أن ذلك العمل الذي قام به البارون دو توت تم بموجب فتوى صدرت من شيخ الإسلام[106]. وكذلك كان شأن الجيش العثماني في الإيالات كما سجل ذلك الرحالة الفرنسي ديفونتان Desfontaines ضمن مشاهداته عن تونس في عام 1783 م، فذكر أن الجندي هناك كان سلاحه يتشكل من مسدس وسيف وخنجر وبندقية من غير حربة[107]. ولم يكن الجيش العثماني في الجزائر يشكل استثناء عن ذلك النظام في تسليح الجندي، فلم يستخدم هو أيضا البندقية المجهزة بالحربة، وظل سلاحه حتى سنة 1830 م مشكلا من آلتين منفصلتين: نارية يمثلها المسدس والبندقية الطويلة، وآلة معدنية يمثلها السيف العثماني الذي يسمى ياتغان[108]. ويعني ذلك أن الجندي الجزائري لما يكون في المعركة، فعوض أن يستخدم سلاحا واحدا مزدوج الوظيفة (ناريا وأبيض في الوقت نفسه)، فإنه كان يستخدم سلاحين في آن واحد، مما يجعل حركته ثقيلة ومناورته القتالية محدودة. ونظرا إلى الأهمية التي صارت تؤديها البندقية ذات الحربة في رفع القدرة القتالية لدى الجندي الفرنسي بشكل خاص والأوروبي بوجه عام، والدور الذي تؤديه في حسم المعارك لصالحه، فإن بعض المصادر الفرنسية تحدثت عن الحملة الفرنسية على الجزائر قبل وقوعها، وبينت الشروط الواجب توفرها لنجاحها في تحقيق هدفها وهو احتلال الجزائر، وكان أحد تلك الشروط تزويد الجيش الذي تتشكل منه الحملة بالبنادق ذات الحراب. وذلك ما كتبه السيد رونودو Renaudot الذي اشتغل رجل أمن في القنصلية الفرنسية في الجزائر قبل الاحتلال، فقال في مؤلفه عن الجزائر الذي أصدره في عام 1830 م: "إن احتلال الجزائر يتطلب بشكل أساس السرعة والإقدام، ولا يحتاج غير تزويد جنود الحملة بالحراب التي تثبت على البنادق (البايونات)، وقائد عام له سيرة عسكرية ثرية، وقائد أسطول مقدام وذكي"[109]. وقد تبين بالفعل ذلك الدور للبندقية المزودة بالحربة في ترجيح القوة القتالية لصالح الجندي الفرنسي على حساب الجندي الجزائري، في ميدان المعارك التي وقعت بين الجانبين بداية من نزول الجيش الفرنسي في شبه جزيرة سيدي فرج يوم 14جوان 1830 م. وظهر ذلك في المواجهات التي وقعت وجها لوجه، سواء أثناء القتال في الميدان، أم أثناء هجوم الجزائريين على الفرنسيين في مواقعهم خلف الحواجز الترابية التي أقاموها في مناطق مختلفة، أو مشكلين خطوطا دفاعية، أو هجومية. فكان الجنود الفرنسيون يتلقون الجنود الجزائريين المهاجمين بواسطة حرابهم

---

105 Coussin de Perceval (P. A.), Précis historique de la guerre des turcs contre les russes, tiré des annales de l'historien turc Vassif Efendi, Paris, Le Normant, 1822, p 160, et

106 Coussin, Précis historique ..., op. cit., p 160, n 1

107 Peyssonnel et Desfontaines, Voyages dans les régences de Tunis et d'Alger, publiés par M. Dureau de la Malle, T. 2, Paris, Gide, 1838, p 31

108 Rozet, relation de la guerre ..., op. cit., p 164 ; Anonyme, Aperçu historique, op. cit., p 231

109 Renaudot (M), Tableau du Royaume de la ville d'Alger et de ses environs, Paris, P. Mongie Ainé, 1830, p 179 .

والنص الفرنسي هو ما يأتي:

La prise d'Alger exige surtout de la célérité et de la hardiesse ; il ne faut que des baïonnettes aux soldats, beaucoup de conduite au général en chef, de la bonne volonté et de l'intelligence au commandant de l'escadre

المفتوحة بإحكام في نهاية بنادقهم الطويلة، فيطعنونهم في صدورهم أو بطونهم، ويسقطونهم قتلى على الأرض. وكما كانوا يفعلون بالجنود المشاة فإنهم كانوا يفعلون بالفرسان أيضا. وذلك ما وصفته المصادر الفرنسية التي أرّخت لأحداث الحملة بكل وضوح. وحول ذلك يقول الضابط "ديبري Desprez" في وصفه لإحدى المناوشات: "لقد هجم أربعة آلاف جندي من الأتراك، بعضهم حاملين السيوف، وبعضهم الآخر حاملين البنادق، على الحواجز التي تحمي الفرقة الأولى (الفرنسية). فسقط كثير من الأتراك قتلى على تلك الحواجز بالضربات التي وُجهت إليهم بالحراب المثبتة على البنادق (البايونات). وقد خاض جنود الفرقة السابعة والثلاثين معهم معركة وجها لوجه، وكان النصر حليفهم فيها"[110]. ويقول جيشيرو دو سان دوني واصفا ما حدث في معركة أوسطه والي: "إن العدو [الجزائري] الذي هوجم بالحراب المثبتة على البنادق، لم يستطع الثبات في الميدان، فاضطر إلى التراجع بسرعة وبفوضى كبيرة نحو المرتفعات الأمامية من منطقة أوسطه والي"[111]. ويقول المؤرخ "ناتمون Nettement" في وصفه لإحدى العمليات القتالية التي صد فيها الفرنسيون إحدى الهجمات التي قام بها الجزائريون: "قام الجنرال "داران D'Areines" بمواجهة الهجوم، ثم أخذ المبادرة، وزرع حماسا قويا في فرقته، وبواسطة هجوم قاموا به بواسطة الحراب المثبتة على البنادق (البايونات) صدوا الأتراك وأجبروهم على التراجع نحو الوادي"[112].

9 - تطور العمل الاستخباراتي:

إلى جانب تطور العتاد والسلاح فإن هناك جانبا آخر من العمل العسكري انعكس عليه التطور العلمي في أوروبا هو الجانب الاستعلاماتي (الاستخباراتي) الذي له دور كبير في معرفة قدرات العدو وخططه، ووضع المخططات القتالية المناسبة للتغلب عليه، بداية من اتخاذ قرار الحرب، إلى الإعداد المادي لها، والتخطيط للعمليات القتالية التي ترافقها، وأخيرا معرفة النتائج التي ستترتب عنها. وذلك كله بهدف التحكم في مجريات الحرب وضمان كسبها بأقل التكاليف. وكان يجند لتلك العمليات الاستخباراتية ضباط عسكريون مختصون، وأهم ما يتميزون بها الذكاء وروح المغامرة والمعارف الواسعة. وهذا ما قامت به فرنسا بالفعل بخصوص الجزائر قبل شن حملتها العسكرية عليها في عام 1830 م. وكانت أشهر عملية استخباراتية قامت بها من أجل تهيئة تلك الحملة هي التي قام بها بأمر من نابليون بونابرت، في عام 1808 م، أحد قادة فرقة الهندسة العسكرية، وهو إيف بوتان Yves Boutin. وقد أقام ذلك الجاسوس الفرنسي في مدينة الجزائر بين 24 ماي و16 جويلية من السنة المذكورة، وتجول في أنحاء المدينة، داخلها وخارجها، وأجرى ملاحظاته على الحصون المختلفة والسواحل والطرقات، وتعرف على تشكيل الجيش الجزائري، وأنواع الأسلحة التي يستخدمها، وعلى كل ما يلزم لنجاح الحملة العسكرية التي كان نابليون ينوي إرسالها للاستيلاء على الجزائر. ومن مظاهر التمويه التي كان يستخدمها ذلك الضابط الفرنسي في الجزائر لكيلا تكتشف السلطات العثمانية عمله الحقيقي، أنه كان يخرج من المدينة ويجلس في السواحل ويتظاهر بأنه يصطاد السمك باستخدام الصنارة، ولكن هو في واقع الأمر كان يقيس عمق البحر لكي يحدد النقاط المناسبة لرسو السفن التي ستقوم بإنزال الجيش والمعدات العسكرية اللازمة للحملة التي ستشن على الجزائر. وأدى به ذلك العمل إلى اختيار النقطة الواقعة في شبه جزيرة سيدي فرج الواقعة غربي المدينة. ومن ثم حدد الطريق

---

110 Desprez, Journal ..., op. cit., p 101

111 Saint-Denys, Considérations ..., op. cit., p 170

112 Nettement, Histoire ..., op. cit., p 378

الذي ستسلكه الحملة حتى تصل إلى مدينة الجزائر[113]. وكانت تلك الخطة هي التي نُفذت بالفعل في حملة عام 1830 م. ولكن قادة الحملة لم يكتفوا في الواقع بما قدمه لهم بوتان في تقاريره من معلومات حول الجزائر، وإنما أضافوا إليها معلومات أخرى عديدة تتعلق بشتى المجالات، من عسكرية وسياسية وبشرية وطبيعية وطوبوغرفية ودينية وثقافية ولغوية وغيرها، اقتبسوها من مصادر متعددة. وإن الكتاب الذي أعدوه بخصوص ذلك قبيل الحملة ووزعوه على الضباط والجنود لكاف للاستدلال على الحجم الكبير من المعلومات التي جمعوها عن الجزائر قبل اتخاذ قرار شن الحملة عليها[114].

ومثل هذا العمل الاستخباراتي هو الذي كان غائبا من غير شك عند العثمانيين، بحيث لم يكن لديهم المعلومات الكافية عما كان يجري في أوروبا من تطور في شتى الميادين، ومن ذلك الميدان العسكري. ومن ثم جاء فشلهم في مواجهة الأوروبيين في فيينا عام 1683 م، كما في أسطاوالي في عام 1830 م.

10 - استخدام الهندسة والحساب في المعارك:

ومن مظاهر التقدم الذي ظهر في الميدان العسكري كذلك بفعل التطور الكبير الذي حصل في العلوم في أوروبا، ظهور الحرب النظامية التي تقوم على إعداد الجيوش المدربة، واستخدام الأسلحة المتطورة، والتخطيط الجيد لشن الحملات، والقتال على أسس منهجية في المعارك، والمعرفة الدقيقة بحالة العدو والأرض التي تجري عليها المعركة. وكان ذلك كله يتم وفق دراسات ينجزها عسكريون متخصصون، وتقوم في معظمها على علم الحساب الذي يعتبر أدق ما يعبر عن المعارف الصحيحة، وهو علم تعلمه الأوربيون عن المسلمين على إثر انتقال الأرقام العربية إليهم على يد العالم الإيطالي ليوناردو فيبوناتشي Leonardo Fibonacci (1175 . 1250 م) الذي تلقى تعليمه في ذلك في مدينة بجاية الجزائرية[115]. ومن هنا جاء اعتماد الأرقام في دراسة العلوم العسكرية كما تظهر ذلك الحملة الفرنسية على الجزائر في عام 1830 م. فنجد استخدام الأرقام في تحديد الفرق العسكرية التي تشكلت منها الحملة، وإحصاء الجنود والضباط المشاركين فيها، وتقدير حجم المعدات المختلفة التي أحضرت معها، كما نجد ذلك في طريقة القتال في ميدان المعركة حيث اتبعت طريقة المربعات[116]، وهي طريقة دقيقة في تنظيم الوحدات العسكرية في ميدان المعركة، تقوم على تشكيل مربعات ذات أشكال مختلفة، كأن تكون فارغة أو مملوءة، ويتشكل كل منها من عدد محدد من الصفوف، ومن الجنود[117]. وأخيرا في المعلومات الاستخباراتية التي جمعت بخصوص الجزائر، كما ظهر ذلك في الكتاب الذي أُعد حولها ووزع على الجنود

---

[113] تقريره كاملا هو:

Boutin (Yves), Reconnaissance des villes, forts et batteries d'Alger, publié par Gabriel Esquer, Paris, H. Champion, 1927.

كما نشر التقرير ملحقا في : Nettement, Histoire ..., op. cit., pp 574- 599. واعترافا بالجميل الذي قدمه ذلك الضابط لبلاده في تحقيق مشروعها في الجزائر، فإن الدولة الفرنسية أقامت باسمه منارة لإرشاد السفن في ضواحي مدينة الجزائر في عام 1930 م.

[114] Anonyme, Aperçu historique ..., op. cit.

[115] ديورانت (ول)، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، ط 2، القاهرة، جامعة الدول العربية، 1966، م 4، ج 6، ص 170-171؛ العقيقي (نجيب)، المستشرقون، ط 4، القاهرة، دار المعارف، 1980، ص 117.

[116] Penhoën (Barchou de), Mémoires d'un officier d'état- major, Paris, Charpentier, 1835, p 171 ؛Quatrebarres (Théodore de), Souvenirs de la compagne d'Afrique, Angers, Château, 1831, pp 35-36

[117] حول تفاصيل ذلك راجع:

Renard (Général), Considération sur la tactique de l'infanterie en Europe, Paris, J. Dumaine, 1857, pp 131-135

المشاركين في الحملة[118]، حيث نجد معلومات إحصائية محددة ومفصلة حول كثير من الموضوعات، مثل تعداد الجيش الجزائري[119]، والحصون وعدد المدافع المزودة بها مع تحديد حجك فوهاتها[120]، وعدد السفن الحربية مع عدد المدافع التي تحملها[121]، وعدد السكان[122]، ودرجة الحرارة[123]، وعوائد الخزينة[124]، وقيمة العملة المتداولة والأسعار[125]، ونشاط الميناء من حيث عدد السفن التجارية التي يستقبلها والتي تغادره[126]، والمسافات بين المدن[127].

أما إذا أتينا إلى الجزائر فإن مثل ذلك التطور في فن الحرب لم يحدث فيها تماما، ولازالت المواجهات العسكرية إلى ذلك التاريخ تتم بطرق بسيطة وقديمة تخلو من كل تخطيط، وتقوم أساسا على الهجوم الجماعي على العدو دون معرفة مسبقة لا بتشكيل قواته العسكرية، ولا بالطريقة التي يحارب بها، ولا بالأسلحة التي يحملها. وتلك الطريقة في الحرب هي التي سجلتها الكتابات الفرنسية التي أرخت لأحداث الحملة الفرنسية. فيقول أحد ضباط الحملة واصفا إحدى المواجهات التي وقعت قبيل معركة أوسطه والي: "قدم الجزائريون مشاة وفرسانا وانتشروا على مساحة واسعة، وكثرت هجوماتهم على جهات مختلفة [...] ولكن حدتهم وشجاعتهم لم تبلغ المستوى الذي يمكن أن تعوضهم به عما كان يعوزهم من نظام في القتال، ولذلك فخلال بضع ساعات فقط استطعنا أن نُغيّر وضعيتهم، فدخلنا مراكزهم وتابعناهم إلى ما وراء الخط الذي كانوا يحتلونه. وصار عددُهم بعد ذلك يقلُّ مدة بعد مدة، وطلقاتُهم النّارية تخف وتضعف باستمرار، واستمروا يطلقون النار حتى غروب الشمس"[128]. ثم يقول بعد ذلك واصفا الحالة النفسية التي كان عليها الجزائريون قبيل المعركة: " كان العرب والترك توّاقين إلى القتال، معتدين في ذلك بتفوقهم عدديا علينا، ولكنهم كانوا إلى جانب ذلك يجهلون التفوق الذي كان لنا عليهم بفضل معرفتنا بفن القتال والانضباط والنظام، وهي الأشياء التي كانوا هم يفتقدون إليها"[129].

وليست الكتابات الفرنسية فقط هي التي سجلت لنا مظاهر التخلف في فن القتال عند الجزائريين، وإنما الكتابات التاريخية المحلية المعاصرة آنذاك أيضا، ونقصد بذلك ما كتبه أحمد الشريف الزهار في مذكراته، حيث قدم تعليقا مختصرا انتقد من خلاله مفهوم الحرب عند الجزائريين وطريقة خوضهم لها بالمقارنة مع جيوش الدول القوية مثل فرنسا. فوصف ذلك المفهوم المتخلف وتلك الطريقة التي لا تقوم على أسس منهجية بـ "قتال حمية الجاهلية"، و"قتال

---

[118] نقصد به: Anonyme, Aperçu historique ..., op. cit.

[119] Anonyme, Aperçu historique ..., op. cit, pp 46-48, 195-196 ،

حيث نجد إحصاءات مفصلة عن الأعداد التي كانت تتشكل منها وحدات الجيش الجزائري الذي واجه حملة أوربي الإسبانية في عام 1775 م.

[120] Anonyme, Aperçu historique ..., op. cit, pp 190-195

[121] Anonyme, Aperçu historique ..., op. cit, pp 210-211

[122] Anonyme, Aperçu historique ..., op. cit, pp 120-121 ،

حيث نجد إحصاءات مفصلة عن عدد السكان والجماعات السكانية من عرب وترك ومزابيين وقبائل (بربر) وزنوج ويهود. كما نجد إحصاءات عن عدد السكان في تسع عشرة (19) مدينة جزائرية، ومنها مدينة الجزائر، ووهران، وقسنطينة، وعنابة، وبجاية وشرشال ومستغانم وغيرها.

[123] Anonyme, Aperçu historique ..., op. cit, p 87-88

[124] Anonyme, Aperçu historique ..., op. cit, pp 160-163

[125] Anonyme, Aperçu historique ..., op. cit, p 165

[126] Anonyme, Aperçu historique ..., op. cit, pp 226-227

[127] Anonyme, Aperçu historique ..., op. cit, pp 179-188

[128] Penhoën, Mémoires ..., op. cit., p 137-140

[129] Penhoën, Mémoires ..., op. cit., pp 162-163

الرعية"، ويقصد بذلك الحروب التي تخوضها القبائل بعضها ضد بعض، أو تخوضها ضدهم السلطة العثمانية. أما علم الحساب الذي برع الفرنسيون في استخدامه في شؤون الحرب عموما كما بينا أعلاه، فإن أحمد الشريف الزهار ذكر بأن شيوخ القبائل الجزائريين الذين تصدروا الحرب ضد الفرنسيين كانوا يجهلونه، وكانوا لا يفرقون بين المائة والألف، ويعتقدون أن المائة هي الألف، مما جعله يشبههم في ذلك بالبهائم. وفي ذلك كله يقول بأن حسين باشا اتصل بشيوخ القبائل ليأتوه بالجند، فأجابوه لذلك، "فمنهم من قال له أنه يأتيه بأربعين ألف رجل، ومنهم من قال له أنه يأتي بثلاثين ألف رجل، ومنهم من قال بعشرين ألفا، وهكذا سائر الأعراش سهلا وجبلا. فلما قرأ ذلك اجتمعت لديه ملايين يظهرون له الرغبة في الجهاد، وهم قوم مثل البهائم ظهر لهم أن ذلك القتال هو كقتال بعضهم لبعض، قتال حمية الجاهلية، وقد ذكروا له الألوف لأنهم لا يعرفون مقدار الألف، فظنوا أن المائة هي الألف. والباشا نفسه ظن أن هذا القتال مثل قتال الرعية، وإلا فكيف يقابل جنسا قويا كجنس الفرنسيس من غير عدة ولا عدد"[130].

وفي الحقيقة فإن الوضع العام الذي كان سائدا آنذاك في المجتمع العثماني لم يكن مهيأً لإعداد الوسائل التي تواجه بها الأخطار التي تهدد أمن المجتمع (من طبيعية وبشرية)، لأن الثقافة المسيطرة عل العقل الجمعي آنذاك لم تكن تعتمد في ذلك على الفعل البشري كما نص على ذلك الأمر الإلهي في القرآن الكريم من خلال قوله تعالى: "وأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ومِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وعَدُوَّكُمْ وآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُم اللهُ يَعْلَمُهُم (الأنفال/60)، ثم الأمر النبوي الشريف: "أَعْقِلْها وتوكّل". وإنما كانت تعتمد على الفعل الغيبي النابع من الفهم الناقص للدين في بعض الأحيان، والخاطئ أحيانا أخرى. ولدينا دلالتان تاريخيتان توضحان مظاهر ذلك الاعتماد: إحداهما حوار دار بيْن أحد الشيوخ الجزائريين زار المعسكر الفرنسي في سيدي فرج قبيل معركة أوسطه والي، وبيْن أحد الضباط الفرنسيين من القيادة العامة للحملة. فتقول الرواية المتعلقة بتلك الحادثة - كما سجلت ذلك المصادر التي أرخت للحملة - أن الضابط الفرنسي اقترب من الشيخ الجزائري وبيّن له كثرة الجنود الذين كانت تتشكل منهم حملة بلاده، وكثرة العتاد العسكري الذي يحمله هؤلاء الجنود معهم، من أسلحة متنوعة وذخائر حربية مختلفة، ثم سأله عما إذا كانت تلك القوة العسكرية كلها لا تستطيع أن تحقق للفرنسيين هدفهم المتمثل في هزيمة الأتراك والقضاء على حكمهم في الجزائر. ولكي يجيب الشيخ الضابط الفرنسي على سؤاله، فإنه التقط من الأرض عمودا يابسا وكسّره بيديه مرات عديدة إلى أن حوله إلى قطع صغيرة ورماه على الأرض، وخاطب بعدها الضابطَ الفرنسي بعبارة كرّر فيها اسم الله مرتين، وفُهم منها أنه قال: "إن قُوة الله أعظم من قوتكم، وسيحطمها الله كما حطمت أنا العمود أمامكم"[131]. ويتضح هنا أن الشيخ الجزائري اقتصر فعله على تحطيم العمود فقط، أما القوة العسكرية الفرنسية التي كان مطالبا بتحطيمها كما فعل بالعمود بعدما جاءت تهدده في عقر داره، فأدرك بأنه غير قادر عليها، ولذلك أسند فعل تحطيمها إلى الله. أما الدلالة الثانية فهي رسالة بعث بها من إستانبول في 15 رمضان 1253 هـ (12 ديسمبر 1837 م)، كامل باشا الذي كان أحد وزراء الباب العالي، إلى الحاج أحمد باي الذي تزعّم المقاومة الجزائرية ضد الفرنسيين في الشرق بعد استيلائهم على مدينة الجزائر، وبعدها على مدينة قسنطينة عام 1837 م. ومن غريب تلك الرسالة أن الوزير العثماني رسم على ظهرها حرزا طلب من الحاج أحمد باي أن يحمله معه في معاركه ضد الفرنسيين ليجلب له النصر عليهم[132]. ويعني ذلك أن الميادين

---

[130] الزهار، مذكرات، مصدر سابق، ص 168.

[131] Penhoën, Mémoires ..., op. cit., p 153

[132] الأرشيف الوطني التونسي (تونس)،الصندوق رقم 223، الملف رقم 384، الوثيقة رقم 121. وتوجد صورة من تلك الرسالة في الأرشيف الولائي بمدينة قسنطينة بالجزائر، رقمها 65.

التي ستجري فيها المعارك بين الفرنسيين والجزائريين بعد ذلك، ستجمع بين جيشين: أحدهما يُعلِّق نصره على الفعل البشري من خلال استعمال الجند المدرب والأسلحة االفتاكة وأساليب القتال المتطورة، وجيش آخر يُعلِّقُه على فعل غيبي من خلال استعمال الحروز.

خاتمة:

يبدو من خلال العرض أعلاه أن الأسباب التي قُدمت في الكتابات التاريخية لتبرير هزيمة الجيش العثماني أمام الجيش الأوروبي المتحالف في فيينا (بالنمسا) عام 1683 م ، وفي أوسطه والي (بالجزائر) أمام الجيش الفرنسي في عام 1830 م، كان منبعها فهم قديم غير مستوفى لمعنى الدولة، وبشكل خاص لدى مؤرخينا في البلاد الإسلامية من عرب وترك. وترجع أصول ذلك الفهم إلى العهد الذي وقعت فيه الهزيمتان ذاتهما، وهو العهد العثماني، حيث كان مفهوم الدولة يقتصر على الصورة التي تمثلها الهياكل والرموز المادية المتمثلة بشكل أساس في المجتمع والجغرافيا، والهياكل المعنوية المتمثلة في الدين والسياسة. وعلى أساس تلك العناصر الأربعة كان يتحدد الانتماء (المواطنة)، كما تتحدد العلاقات السياسية مع الدول الخارجية أيضا في السلك كما في الحرب. أما الطاقة التي تغذي تلك الهياكل والرموز وتُؤمِّنُها، وهي العلوم والصناعات، فكانت غائبة لدى الطرف العثماني، بينما كانت حاضرة لدى الطرف الآخر (الأوروبي). ولذلك فإن المعركتين اللتين نحن بصددهما إذا كانتا في ظاهرهما قد وقعتا بين جيشين: أحدهما عثماني والآخر أوروبي، أو أحدهما إسلامي والآخر نصراني، أو أحدهما شرقي والآخر غربي، فإنهما في عمقهما قد وقعتا بين جيشين ينتميان إلى مجتمعين لهما مستويان مختلفان في العلوم والصناعات: أحدهما متخلف يعاني الفراغ في ذلك كله، وهو الطرف العثماني، والآخر متطور تزخر بلاده بالإنتاج في ذلك كله أيضا وهو الطرف الأوروبي. وعلى ذلك الأساس تحددت النتيجة في المعركتين: فكانت الهزيمة من نصيب الجيش الذي ينتمي إلى المجتمع المتخلف، أما النصر فكان من نصيب الجيش الذي ينتمي إلى المجتمع المتقدم. وكانت الأسباب التي اعتاد المؤرخون على تقديمها لتفسير الهزيمة التي لحقت الجيش العثماني من مظاهر التخلف الذي كان يعانيه المجتمع الذي ينتمي إليه، كما كانت الأسباب التي قدمناها نحن هنا لتفسير انتصار الجيش الأوروبي مظهرا من مظاهر المجتمع الذي ينتمي إليه. مع وجوب لإشارة أن ذلك الوضع المتخلف المتسم بالفراغ العلمي والصناعي الذي كان سائدا في الفضاء العثماني، كان هو نفسه سائدا في مناطق إسلامية أخرى خارجة عنه، ومن ذلك المغرب الأقصى كما توضح ذلك رسالة وُجِّهت على لسان السلطان العلوي محمد بن عبد الله (1757 . 1790 م) إلى عالِم فاس: الشيخ عمر بن عبد الله بن عمر (ت 1188 هـ (1774 م)، قيل له فيها بأن السلطان أراد "إحياء سُنة الجهاد بهذا القطر المغربي [...] وأراد أن يغْزُوَ الكفرة [(أي الأوربيين الذين يحتلون سواحل المغرب)] [...] وأن يُجهّز جيش المسلمين إلى قتالهم [...] **فاحتاج في إقامتها ([أي لإقامة سنة الجهاد)] إلى أمور عشر على المسلمين وجودها (أي توفيرها)] في هذا القطر بهذا الأوان، وظهر أنها لا توجد إلا بأرض العدو ولا تُحصّل إلا من قبلهم**، وذلك كالقُمن، والصواري، والكور والمدافع وغيرها"، وهي كلها تجهيزات تخص السفن. ثم تضيف الرسالة بأن السلطان له عميل أوروبي تكفّل بجلب تلك الأمور العشرة له مقابل إهدائه فرسين مغربيين "ليبين لقومه أن له منزلة عند الإمام" (أي عند السلطان). وطلب من عالم فاس المذكور أن يجيب في ضوء الشرع عما إذا كان يجوز للسلطان إعطاء الفرسين المذكورين لذلك العميل مقابل جلب تلك الأمور له، أم لا يجوز له ذلك[133].

[133] الخزانة الحسنية بالرباط، مخطوط رقم 11420 (مجموع)، ورقة 219-220.

العلماء الذين كانوا يعيشون في أوروبا
إبان حصار فيينا على يد العثمانيين ومنجزاتهم العلمية
سنة (1094 هـ/1683 م)

اسم العالم	أصله	حياته	اختراعاته واكتشافاته
J.L.Ham	هولندي	.	اكتشاف الحيوان المنوي les spermatozoides (1677).
Otto von Guéricke	ألماني	1602-1686	صاحب تجربة فصل أنصاف الكرات الفارغة من الهواء l'expérience des hémisphères في مدينة (Magdeburg)، حيث وضح ظاهرة الضغط الجوي (1654).
Carnelio Malvasia	إيطالي	1603-1664	مخترع (le réticule) (1662).
Edme Mariotte	فرنسي	1620-1684	قوانين ضغط الغازات (1676).
Jean Dominique cassini	فرنسي	1625-1712	قياس المسافة بين الأرض والشمس (1672)
Francesco Redi	إيطالي	1626-1698	تفنيد مفهوم التكاثر الذاتي notion de génération spontanée (1668)
Robert Boyle	أنكليزي	1627-1691	تعريف العنصر الكيميائي (1661)
John Ray	أنكليزي	1627-1705	صاحب كتاب تاريخ النباتات Historia plantarum) حيث قدم وصفا لـ 18655 نوعا من النبات (1686).
Marcello Malpighi	ايطالي	1628-1694	مكتشف الشعيرات الدموية vaisseaux capillaires (1661)، والكريات الحمراء (1665).
Christian Huygens	هولندي	1629-1695	مكتشف حلقة كوكب زحل والقمر الأول التابع له(1655)؛ ومخترع ميزان دولاب الساعة l'échappement à ancre (1657)؛ وتعريف القوة المركزية الطاردةforce centrifuge؛ وواضع قوانين رقاص الساعة المركب pendule composé (1673)؛ واستخدام اللولب الحلزوني في الساعات Le ressort spiral(1675)؛ وضع نظرية التموج الضوئي (1690).
J.Joahim Becher	ألماني	1635-1682	مكتشف غاز الأثيلين l'éthylène (1669)
Robert Hooke	أنكليزي	1635-1703	مخترع جهاز قياس الضغط الجوي (البارومتر) الذي يستخدم العداد barometre à cadran (1665)، وأول من عرف الخلية (1665).
Jan Swammerdam	هولندي	1637-1680	صاحب أول دراسة في تشريح الحشرات
Nicolas Sténon	دانيماركي	1638-1686	وضع قواعد علم طبقات الأرض (stratigraphie) والقشرة الأرضية (tectonique) (1669).
Isaac Newton	أنكليزي	1642-1727	أول تجربة حول الطيف الضوئي (انتشار الضوء dispersion de la lumière par le prisme) (1661)؛ ومخترع تيليسكوب جديد (1671)؛ اكتشاف قانون الجاذبية الكونية الذي شرحه في كتابه: Philosophiae naturalis

			principia mathematica (1687)؛ وصاحب كتاب: علم الحساب العام Arithmetica universalis (1707).
Oalus Romer	دانيماركي	1710-1644	أول قياس لسرعة الضوء (1676).
Nicolas lémery	فرنسي	1715-1645	اكتشاف ملح الزّرنيخ l'arsenic (1675) .
Gottfried W. Leibniz	ألماني	1716-1646	وضع القواعد الأساسية للحساب التفاضلي calcul différentiel (1686)؛ واضع مفهوم (déterminant) في الرياضيات (1693).
John Flamsteed	أنكليزي	1719-1646	صاحب كتاب: Historia coelestis britanica حيث قدم الاحداثيات الحسابية لنحو 3000 نجم (1725).
Denis papin	فرنسي	1712-1647	اختراع صِمام الأمان soupape de sureté (1679).
Jacques Bernoulli	سويسري	1705-1654	نشر كتابه: (Ars conjectandi) حيث قدم إسهاما كبيرا في تقدم علم الاحتمالات (1713).
Pierre Varignon	فرنسي	1722-1654	اختراع جهاز قياس ضغط السوائل Le manomèetre (1705)، واخترع مسطلة تشكل القوى المتقاطعة (1725).
Joseph Pitton	فرنسي	1708-1656	واضع مفهوم النوع في علم النبات (1694).
Edmond Halley	أنكليزي	1742-1656	صدور كتابه في الفلك: مختصر علم المذنبات الفلكية Synopsis d'astronomie cometaire، وفيه معارف فلكية جديدة حول 24 مذنب، وبين الأفلاك التي تدور فيها وعلاقتها بالشمس (1758-1759)؛ واكتشاف الحركة الذاتية للنجوم (1718).
Georg Ernest Stahl	ألماني	1734-1660	صاحب نظرية الاحتراق phlogistique (1697).
Guillaume de l'Hospital	فرنسي	1704-1661	أول مؤلف كامل حول الحساب التفاضلي (1696).
Guillaume Amonton	فرنسي	1705-1663	صاحب مفهوم الصفر المطلق في درجة الحرارة (1703).
Thomas New Comen	أنكليزي	1729-1663	مخترع بالاشتراك مع علماء أنكليز آخرين أول ىلة تسير بالبخار (1705)،وأعطاها شكلها النهائي في عام 1712.
Giovanni Girolano	إيطالي	1733-1667	مؤلف كتاب Euclides ab omni naevo vindicatus حيث شرح الهندسة غير الإقليدييية (1733).
Herman Boerhaave	هولندي	1738-1668	مؤسس علم الطب الإكلينيكي الذي شرحه في كتابه: مؤسسات علم الطب Institutiones medicae (1708).
Stephen Gray	أنكليزي	1736-1670	مكتشف تولد الكهرباء بالاحتكاك، وإنجاز تجربة نقل الكهرباء (1729)
Georg Graham	أنكليزي	1751-1673	تطوير ميزان الساعة l'échappement (1715)؛ واختراع الرقاص المتوزان الذي يسير بالزئبق في آلة الساعة balancier compensé à mercure (1719).
Stephen Hales	أنكليزي	1761-1677	صاحب أول دراسة حول الضغط الشرياني عند الحيوان (1733).
John Hadley	أنكليزي	1744-1682	مخترع آلة قياس ارتفاع الأجرام السماوية من على السطوح المتحركة (السفن) le sextant (1731).